أحمد بهجت

تفاحة آدم

دار الشروق

تفاحة آدم

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨
برقياً : شروق - تلكس : SHROK UN ٩٣٠٩١
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ ٨١٧٢١٣
برقياً داشروق - تلكس SHOROK . 20175 LE

الأعزب الهارب من التجربة

تستطيع المرأة بقليل من المال ، وكثير من الشجاعة ، أن تحيل أي كوخ حقير إلى بيت جميل تحلو فيه الحياة ..

هذه القدرة على تغيير ما هو كائن إلى ما ينبغي أن يكون ، هي قدرة خاصة بالمرأة ...

وهذا ما نعنيه بالقدرة على الحلم ..

إن المرأة تستطيع أن تحلم أفضل من الرجل .

وصحيح أن حلمها عادة لا يغادر نطاق البيت ، ولكن هذا هو بالتحديد سر قوة المرأة حين تحلم ... لأن البيت في نهاية الأمر هو مركز الخلية الإنسانية ، وهو الصورة المصغرة للمجتمع ...

أليست الأسرة نواة المجتمع ؟

ولقد قيلت كلمات كثيرة ضد الزواج ، وحمل العزاب على مر التاريخ أعلام الوحدة ، وقالوا إنهم قد نجحوا في اجتياز مخاطر الحياة دون زواج ... ولكن كل هذا الكلام بقي محل شك في مجال التطبيق .

قال الوزير السياسي أرستيد بريان : « لا ينبغي لرجل الدولة أن يتزوج . انظروا إلى الحقائق ، لقد استطعت طوال سنوات العمل الشاقة أن أحتفظ بهدوئي . في المساء ، بعد كفاح يوم حافل ، كان

في وسعي أن أنسى .. لم تكن لي زوجة طموح غيور تذكرني بنجاح زميلي ، أو تخبرني بالأشياء الكريهة التي تقال عني . وهذه هي قوة أولئك الذين يعيشون وحدهم » .

نتأمل هذه الكلمات :

إن فيها سحراً كاذباً لا يلبث البحث المتأني أن يكشف عنه .

لماذا لا ينبغي لرجل الدولة أن يتزوج ؟

يقول الوزير أرستيد إنه احتفظ بهدوئه بسبب عدم زواجه ، فهل الزواج عاصفة على الدوام ؟

إن عدد السياسيين المتزوجين الناجحين في الزواج والحياة السياسية معاً ، عشرة أضعاف عدد السياسيين العزاب ..

بل إن خداع السياسة وعالمها المتصارع وتيارات هذا العالم يمكن أن تدمر الهدوء الداخلي للسياسي ، الا إذا كان له مرفأ يلجأ إليه ليحس فيه بالثبات والهدوء والسعادة .

والحقيقة أنني كلما تأملت هذا السياسي الوزير انتهيت إلى الدهشة .

إنه يتصور أن الزوجة هي المخلوق الذي يذكر المرء دائماً بنجاح زملائه ، أو هي المخلوق الذي لا يفتأ يتحدث عن الأشياء الكريهة التي تقال عن زوجها .

وفي البعد عن هذا كله قوة ...

وهذا هو عين الضعف ...

إن القوة أن يعرف الإنسان ماذا يقال عنه ، ثم لا يهتم ، أما الضعف فان ينأى بنفسه عن كل نقد ويحسب أنه قد أفلت من النقد .

إن الحياة السياسية قد تبدو أشق من الزواج وأصعب ، ولكنها في

واقع الأمر تجربة للحياة كالزواج تماماً ..

والنجاح في الحياة السياسية والهرب من الزواج أقل كثيراً من النجاح في الزواج والحياة السياسية .

ومثلما نقل إلينا الفكر كلمات هذا السياسي الأعزب ، نقل إلينا أيضاً أحاسيس المتزوجين من رجال الدولة والسياسيين .

إن تشرشل بعد كسبه للحرب وخسارته في الانتخابات ، لم يجد نفسه إلا في أحضان العائلة والرحلات والرسم ..

والزوجة قد تبدو في بعض الأحيان مخلوقاً منغصاً أو مشاكساً أو متعباً . ولكنها في معظم الأحيان سكن للرجل ...

وهي أيضاً مودة ورحمة له ...

والذين لم يجربوا الزواج ، أفلت منهم جانب حيوي من الحياة . وأفلت منهم في الوقت نفسه خوض تجربة الشجاعة . إن الشجاعة لا تكون بالبعد عن الميدان وهجر التجربة ، وإنما تثبت الشجاعة نفسها في قلب التجربة .

زواج الحب .. وزواج المصلحة

في الحضارات القديمة ، ومعظم المدنيات الشرقية ، كان الزواج مسألة ترتيب لا اختيار .. وموضوعاً عقليًّا لا وجدانيًّا ..

في الحضارات القديمة ، كانت الزيجات تفرض وهي مضادة لرغبة أحد الطرفين المعنيين أو كليهما ، وفي القرن التاسع عشر ، في فرنسا ، كان الزواج مسألة يرتب لها القس ، وأحياناً تدبر لها امرأة محترفة هي « الخاطبة » أو يدبر لها مسجل العقود . ومن المدهش أن أغلبية هذه الزيجات كان سعيداً ، أكثر سعادة من الزيجات التي قامت على أساس الحب المتبادل !

سئل « أندريه موروا » في ذلك فقال :

إن الأمر سهل ، إن الحب العنيف يعطي صاحبه صورة عن الناس ليست هي حقيقتهم . والرجال الغارقون في الحب إلى آذانهم ، يتصورون أن الزواج سيمنحهم قدراً هائلاً من السعادة .

ولهذا يتزوجون ..

ثم لا تلبث خيبة الأمل أن تدركهم !

وفي أميركا مثلاً ، تقع زيجات الحب أكثر مما تقع زيجات المصلحة أو الاتفاق والترتيب ..

ولكن الأميركيين ــ للدهشة الشديدة ــ يعمدون إلى الطلاق أكثر

من غيرهم من الشعوب ..

تقول « روسي دي سال » وهي فرنسية تعيش في أميركا : إن الكثير من الشباب الأميركي يتوقع حين يتزوج أن يعيش قصة حب لا تشوبه شائبة ، فهم قد أنفقوا وقتاً طويلاً في دور السينما التي تصور لهم الحب على أنه هذه الرحلات التي لا تنتهي إلى الريف ، وهذه السعادة التي لا تتوقف ، كما أن السينما علمتهم أن الشجار بين العاشقين ينتهي دائماً بقبلة تمسح الجراح وتؤدي إلى الصفح .

هذه الصورة ليست هي الحقيقة ..

إن الشباب في أميركا يكتشف بعد الزواج أن الرحلات إلى الريف باهظة التكاليف ومتعبة ، كما أن الريف الجميل نفسه من الصعب العثور عليه ، كما أن رفاق السفر عصبيون ومزاجهم متقلب ..

أيضاً يجهل الشباب الأميركي أن سر جمال الممثلات في السينما هو هذا الجيش الجبار الذي يقف وراءهن ويرسم صورهن بشكل يثير خيال المتفرج وإعجابه ..

وعندما يتزوج الشاب ثم يرى زوجته في ثياب المنزل ، ويراها وهي منحرفة المزاج « منكوشة » الشعر .. ثم تمر الأيام ويصطدم الزوجان بمتاعب الحياة اليومية ، ويسفر التعب عن وجوده ، وتبرز الأنانية ..

عندما يقع هذا كله فماذا يحدث ؟

إن خيبة الأمل تستولي على الزوجين .

وبدلاً من أن يقول كل واحد منهما لنفسه :

ـ ليس في هذه الدنيا شيء كامل منزه عن النقص حتى الحب ..

فإنهما يقولان : لقد أسأنا الاختيار .. إن الكمال لا شك موجود في شخص آخر وفي قلب آخر ..

وهكذا يحصلان على الطلاق ليستأنف كل واحد منهما البحث ..

وهكذا تنفصم علاقة ويبدأ البحث عن علاقة جديدة .. هذه العلاقة الجديدة لا تدفع بهما إلى الاقتراب من هذا الكمال المستعصي على الوجود ..

وهكذا يعود الشباب إلى التجربة ، فإذا فشل مرة ثانية عاد إلى التجربة مرة ثالثة .. وهكذا تتعدد مرات التجربة ، وتتكرر مرات الفشل ..

ولقد أثبتت الدراسات النفسية والتجارب أن الزواج المثالي حلم بعيد التحقيق ، وهو حلم مستحيل إذا كان كل زوج من الزوجين يريد من الطرف الآخر أن يكون هو الكمال المثالي النهائي ..

يصير الزواج حلماً جميلاً ممكناً ، بالتسامح .. وبالتغاضي .. وبالقدرة على فهم طبيعة الزوج الآخر ومحاولة تقبل هذه الطبيعة ..

ان كل انسان ينام على فراشه بطريقة خاصة ، ويحب ألواناً من الطعام قد يمقتها الآخر ، ويفكر بأسلوب قد لا يعجب الطرف الثانى ، ويتصرف بشكل قد يراه شريك الحياة مأساة كاملة الأركان ..

وهذه كلها مشاكل لا يمكن حلها الا بالأدب .. وبروح المرح ، والقدرة على التضحية مرة ومرتين وعشر مرات ..

ولسوف يكون مهماً جداً أن يبادر كل زوج إلى البدء بالتضحية .. لأن انتظار صدور التضحية من الطرف الآخر يعني أن سفينة الزواج قد ارتطمت بالصخور .

النكد على الطريقة الشرقية

حدثتنا سيدة أميركية عن أسلوب التنكيد على الزوج ، وهو أسلوب غربي بحت لنا عليه أكثر من نقد .

وأول ما نلاحظه على هذا الأسلوب أنه قد أهدر تماماً الالتفات لأقارب الزوج وطريقة معاملتهم بشكل يؤدي إلى تنغيص حياة الزوج وحمل الهموم إليه والتنكيد عليه .

ولعل هذا القصور في تناول الأوروبيين أو الأميركيين للنكد نابع من عدم وجود العلاقات الأسرية ، وعدم أهمية الأسرة إلى جوار أهمية الفرد ..

أما في الشرق ، فالأسرة كائنة وموجودة وتلعب دورها الخطير . وللأقارب أهمية خاصة في النسيج الاجتماعي في الشرق .

ومن هنا يا سيدتي سوف نزودك بعدة نصائح للتنكيد على زوجك .. لكنه نكد على الطريقة الشرقية ! وسترين أنه أسرع مفعولاً من النكد على الطريقة الغربية . وإليك النصيحة الأولى :

● قولي دائماً « الأقارب عقارب » . وهذا مثل عامي متخلف كان من المفروض أن يدخل المتحف ويستقر مع الأتربة فوق أحد الرفوف .. ولكن لا بأس من استخراج هذا المثل المستخفي وترديده دائماً .

النصيحة الثانية :

● قولي لزوجك : « إن أمك لا تحبني » .. ولا تتعبي من ترديد هذه العبارة . أنت تعلمين أن زوجك يحب أمه . إنها أمه التي ولدته وربته وحنت عليه ، ومن المستحيل ألا يحبها .

ولكنك لو ظللت ترددين له هذه العبارة فسوف يبدأ الصراع في نفسه ، وسيحس بالانقسام .. وهذا كله هو أسرع طريق إلى النكد .

النصيحة الثالثة :

● قولي لزوجك : « إن أختك لم تسلم علي في المرة الأخيرة التي شاهدتها فيها . لقد تجاهلتني تماماً كأنني جزء من الهواء » . قولي له إن هذا لا يصح ، لا يجوز ، لا يمكن .. انفجري في البكاء .. واستمري في البكاء والشكوى . وسيحس الزوج بالنكد على الفور ، وسيلعن اليوم الذي تزوج فيه .

النصيحة الرابعة :

● لا تطري طعام أم زوجك ، ولا تمدحي الطعام الذي يقدمه أهله .. انتقديه دائماً ، قولي له إن أهله يطهون طهواً يشبه طهو السجون أو مستشفيات الرمد . سيحس بأنك لا تحبين ما يحبه وسيبدأ النكد فى غزوه .

النصيحة الخامسة :

● قولي لزوجك إنه يحب أمه أكثر مما يحبك أنت ، وأنت زوجته ، قولي له إنه يهتم بأخواته وأقاربه أكثر مما يهتم بك ، وأن كل نقوده تذهب لعائلته .. والمفروض أن تذهب كل نقوده لزينتك أنت .

إذا اتبعت هذه النصائح الخمس ، فثقي يا سيدتي بأن زوجك

سيحس بأنه قد أخطأ بزواجه منك . ولما كنتما زوجين منذ فترة طويلة ، ولما كان هناك أطفال بينكما ، فسوف يبدأ الهم في غزوه ، وسيعرف النكد طريقه إليه ..

إذا استمرت هذه السياسة ، فثقي بأنك ستفقدين زوجك ، وربما يفقد زوجك عمله نتيجة انشغاله بهذا النكد .

هل تسألين : كيف أحتفظ بزوجي وأحتفظ بحبه ؟

اتبعي عكس النصائح التي قدمناها إليك .

الأمر سهل كما ترين يا سيدتي .

كيف تنكدين على زوجك ؟

سهل أن تكوني لطيفة مع زوجك .

سهل ويسير أن تكوني محبة له . عاشقة كالأيام الأولى في الخطبة .

هذا كله سهل وممكن . وكل امرأة تعرف متى تكون لطيفة وكيف تكون لطيفة . إنما الصعب أن تكوني مشاكسة ونكدية ..

إن النكد فن أصعب من فن الحب ، وهو يحتاج إلى موهبة أكبر ، ولهذا السبب يحرص الكتاب والأدباء على تزويد الزوجات بهذا الفن حتى تكون كل ألوان الفنون تحت أيديهن .

كتبت زوجة الكاتب الأميركي ديل كارنيجي عشر نصائح لأي زوجة تريد التنكيد على زوجها .

وسوف نقول فائدة التنكيد ومزاياه بغد أن نستعرض النصائح الذهبية العشر .

النصيحة الأولى : كوني وقحة مع سكرتيرته لا سيما إذا كانت شابة وجميلة فلا تدعي فرصة دون أن تذكريها بمركزها وحدود مركزها . إن فقد السكرتيرة النافعة قد يكون سبباً رائعاً للتنكيد على الرجل الطموح .

النصيحة الثانية : اتصلي بزوجك هاتفياً عدة مرات في اليوم ،

وحدثيه عن متاعبك السرية ، واسأليه مع من يعتزم تناول الغداء . ولا تنسي أن تملي عليه طائفة من أصناف البقالة ليبتاعها لك وهو عائد . ولا تنسي الانقضاض المفاجئ عليه في المكتب ، واختاري الأيام الحاسمة للانقضاض عليه .. مثل يوم قبض المرتبات . وسوف يعرف العاملون معه من منكما صاحب السلطان في البيت . وسوف تتلاشى قدرة زوجك على تركيز أفكاره في عمله .

النصيحة الثالثة : أثيري نزاعاً مع زوجة أحد العاملين معه ، سرعان ما ينقلب المكتب إلى فريقين : فريق معك وفريق ضد زوجك .

النصيحة الرابعة : قولي له دائماً إنه مثقل بالعمل دون أن يتقاضى المرتب الذي يستحقه . حدثيه بأنه مغبون مظلوم . قولي له إنه لا يلقى التقدير الذي يستحقه من المكتب الذي يعمل فيه . فسوف يؤمن زوجك بما تقولينه وسوف يظهر هذا في عمله .

النصيحة الخامسة : العبي دور الرئيسة معه في البيت والمكتب . حدثيه عن كيف يعمل وكيف يتصرف . ارسمي له سياسة العمل في المكتب الذي يعمل هو فيه .

النصيحة السادسة : حاولي أن توهميه بالنجاح الزائف الذي تراعي فيه المظاهر ، عن طريق إقامة حفلات تبهظه نفقاتها . عيشي فوق مستوى دخله . صحيح أنك لا تخدعين أحداً بهذا المظهر ، ولكنك ستجدين كثيراً من المسرات طالما استمر هذا الوضع .

النصيحة السابعة : ضعي نظاماً للتجسس على زوجك في البيت . ولا تكفي عن سؤاله أين كان ؟ وماذا كانت صفة عميلاته ؟ ومن يساعدنه في العمل ؟ لا تهتمي بالحقيقة التي تقول إنه لا غنى عن

الاتصال بالنساء في الحياة المعاصرة .

النصيحة الثامنة : استديني دائماً لترتبك ميزانية الزوج .

النصيحة التاسعة : كوني روح الحفلات التي يقيمها زوجك . تصرفي فيها كما يحلو لك ، سيخلق هذا المتاعب لزوجك في عمله .

النصيحة العاشرة : لا تكفي عن الشكوى والبكاء والتذمر في كل مرة يضطر فيها زوجك إلى العمل أكثر من الوقت المحدد ، أو للسفر في مهمة تتعلق بالعمل .. دعيه يعرف أنك فوق العمل وأهم من العمل والنجاح .

تقول زوجة الكاتب : إن المرأة ، إذا اتبعت هذه النصائح العشر فسوف تنكد على زوجها . وربما فقد عمله ، وفقدت الزوجة زوجها ..

وهذا صحيح ..

والآن سيدتي .

إن الفرصة سانحة أمامك للتنكيد على زوجك بالطريقة الأوروبية ، وهناك طريقة شرقية للتنكيد عليه ، طريقة تؤكد أن الشرق قد تفوق على الغرب في هذا المجال الحيوي .

وإلى اللقاء مع « النكد على الطريقة الشرقية » .

كيف نعرف الحقيقة ؟

يقول « والتر وين » مؤلف كتاب « أبواب الحب المغلقة » : ان معظم ما يؤخذ من عواطف البشر على أنه حب ، لا يمت إلى الحب الا في مظهره ، فإذا لم تكن العاصفة مغروسة جيداً في أعماق المرء ، كان هذا مجرد انعكاس بصورة زائفة للعاطفة . وربما نكون أمام عاطفة سطحية تخلع عليها الحياة أردية الحقيقة ، وهي ليست من الحقيقة .. ومثل هذه الصور الزائفة فى الحب لا تصمد أمام صروف الدهر وتوالى الأيام وامتحانات الزمن ..

وهذا الكلام صحيح جداً ..

ولكن المشكلة تبقى ممثلة في السؤال التالي :

● كيف نعرف أن ما نحس به هو الحب الحقيقي ، أو هو صورة زائفة من انعكاس الرغبة في الحب الحقيقي على صفحة النفس ؟

هذا هو السؤال ...

وهو سؤال صعب ... هو أصعب عند المحبين من سؤال هاملت لنفسه : أكائن أنا أم غير كائن ؟ .

إن هاملت كان هو هذا النموذج المتردد المثقف الذي يزن الأمور في ذهنه ، فإذا بعوامل الجذب تتعادل مع عوامل الشد ، وإذا هو

في مكانه لا يتحرك إلى الأمام أو الخلف .

مشكلة هاملت كانت مشكلة هينة . لقد حلها شكسبير في النهاية بأن دفعه دفعاً إلى الفعل . هيأ له ظروف الحركة فتحرك . أما مشكلة سؤالنا الذي بدأنا به الكلام فتظل أعصى على الحل وأصعب على الجواب .

هل يمكن أن نعرف أن ما يخفق به قلبنا هو رغبة في الحب ؟ أو هو الحب الحقيقي الذي ننتظره ؟ أو هو حب زائف ؟ .

هل هناك مفاتيح يمكنها فتح هذا الباب الموصد ؟ .

هل هناك مقياس أو جهاز يمكننا منه أن نعرف هذه الحقيقة ؟

في تصوري الخاص ـ وطبقاً لتجاربي المتواضعة في هذا الميدان ـ أقول لكم أنني لا أعرف .. ولا أعرف كيف يمكن أن يُعرف الإنسان أن هذه الخفقة هي الحب ، لا ارتعاشة برد سببتها سحابة شتائية وريح قطبية عاتية .

يخيل إلي أن من الصعب أن يعرف الانسان المستقبل .

إن معرفة الغيب أمر مستحيل . وهذه الرغبة في معرفة المخبوء والآتي وما لم يقع بعد ، هي سر النزوع نحو خرافات قراءة الفنجان أو معرفة خطوط الكف أو أخبار الطالع ...

وهذه كلها خرافات تقترب من بدع الفن وايهام المسرح .

من المستحيل معرفة ما لم يقع بعد . ومن الصعب في الحب أن نقول هل إن ما أحسسناه كان حباً أم صورة زائفة للحب .

رغم ذلك .. هناك بوصلة يمكن استخدامها في سفينة القلب حتى لا يغرق القلب ونفقد السفينة في ضباب المشاعر .

هذه البوصلة هي العقل الداخلي ، هي الفؤاد .

وهو عقل استعاره شاعر ألمانيا « غوته » فقال : إن الإنسان لا يمكن أن يحب الا مرة واحدة .

قد ينساق القلب وراء ألف غرام من هذا النوع السطحي العابر ، ولكن هذا كله سرعان ما يتبخر ويندثر وينقشع كالسحب المارة ، ويبقى إحساس واحد تجاه انسان واحد .

يبقى هذا الرباط الذي نحسه يعقد القران بين فؤادنا وقلب من نحب .. وبين روحنا وروح من نحب !

ودليل الحب الصادق من الحب الكاذب شيء .

في الحب الصادق نتصل بقلب الكون مباشرة ، وننشد حقيقة كبرى ، ونقترب من الله حين نمارس مجرد الشعور بالحب .

أما في الحب الكاذب فنسعى وراء ما يسعى إليه الكافة .

وفي الحب الصادق نسمو ، ونترفع عن الصغائر ، ونحس بالامتلاء الروحي .

أما الحب الكاذب فيشبع الجسد ويترك الروح جائعة أشد الجوع .

فليرحمنا الله بنور هذا الفؤاد حين تقلع سفننا في بحار الحب الإنساني .

نشيد حب كوني

في طفولتي كنت دائم الأسئلة . سألت أبي يوماً :

● لماذا خلقنا الله ؟

قال أبي بعد لحظة تفكير : لأنه يحبنا ..

غاص السؤال في عقلي الباطن ومرت الأيام وكبرت .. وأحياناً كان السؤال يطفو داخلي :

● لماذا خلقنا الله ؟

ودائماً أستعيد الجواب القديم لأبي .

إذا لم يكن الله سبحانه وتعالى يحبنا فلماذا خلقنا ؟

ليس هناك سبب للخلق غير الحب . كل مخلوقات الله تعالى وجدت بالأمر الإلهي .. بمجرد توجه المشيئة .

بلفظ «كن» ..

وهو لفظ يحتوي على الحب .

فلننظر في الخلائق بحثاً عن الحقيقة .

إن الملائكة وهم جنود الله تعالى وسفراؤه إلى رسله هم حب الخير الأعلى في صورته العليا .

والشياطين وهم جزء من خلق الله هم حب الغواية في صورته السفلى .

والبشر وهم خلفاء الأرض المكلفون هم الحب في صورته القلقة المتقلبة . وأحياناً يصعد البشر إلى درجة الحب الملائكي أو يقتربون منها . وأحياناً يهبطون إلى درجة الحب الشيطاني فيهوون إلى الغواية .

أما الحيوانات فهي حب صامت لا ينطق .

وكل حيوان يبدو كوناً رائعاً من حب الذات وحب البقاء ، وحب الافتراس إذا كان مفترساً ، أو حب العشب إذا كان وديعاً من أكلة العشب .

أما النباتات فهي حب يصلي لله باللون الأخضر .

أما الصخور والجمادات فهي حب تجملت روحه من هيبة الله وخشيته .

أما البحر فدموع حب صادق بكاها الكون كله شاكراً حين أذن الله له بالظهور قدوماً من العدم .. واستجابة لكلمة «كن» .

أما النجوم والسدائم والمجرات والفراغات الهائلة بينها فهي مساحات حب هائل ينفجر قلبه انفجارات نووية لا تتوقف .

ليس في الكون كله شيء يخرج على قانون الحب المسيطر الآسر .

نتأمل معاً قوله سبحانه «ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين» .

هل تأتي الأشياء طائعة الا إذا كانت تحب .

يقول الله تعالى «وما خلقت الجن والإنس الا ليعبدون .. ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون .. إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين» .

فلنفكر في هذه الآية .

أي معنى تحتوي عليه كلماتها الطيبة .

إن سماح الله تعالى واذنه وتكرمه على الإنس والجن بعبادته ليس إلا حباً .. وإذا لم يكن الله تعالى يحب الإنس والجن ، فهل يدعو الله ما يكره لعبادته ؟

إن العبادة هي قمة المجد ، وهي قمة السعادة ، وهي ذروة الفوز .. فهل يدعو الله أحداً لقمة الفوز والسعادة والمجد وهو لا يحبه ؟

ستقولون : ولكن هناك من يكفر بالله .. وهناك من ينكر الله أو يلحد في أسمائه ، فكيف يكون هؤلاء تعبيراً عن الحب ؟

الجواب يسير .

هؤلاء جميعاً تعبير عن حب النار . والذين يحبون النار تحبهم النار . فلماذا نتدخل نحن في قصة حب لا علاقة لنا بها ؟

كان المفروض أن يحب هؤلاء الله تعالى ويؤمنوا به . ولكنهم اخطأوا الطريق وأحبوا النار ، وكل مخلوق حر في نفسه ، يحب من يشاء . وكل مخلوق مسؤول عن مشاعره يتجه بها لمن يشاء ..

وكل ما في الكون نشيد حب .. هذا هو نشيد الإنشاد .

كل شيء .. كل مخلوق .. كل تعبير ..

وهذا الحب كله قطرة من بحار الفيض الإلهي .. والحب الإلهي .

فلننظر في قلوبنا حين نوجهها للحب .

ولنوجهها دائماً نحو خالق الحب تباركت ذاته وتعالت أسماؤه .

ولنحذر أن نكون تعبيراً عن حب النار .

لماذا أنت نحيلة .. كالفيل ؟ !

كان العرب لا يحبون المرأة النحيلة ..

فمن قيم الجمال العربي القديم أن تكون المرأة ممتلئة من جميع الأنحاء والجهات ، سمينة كسولة .. تنام حتى الضحى ولا تستيقظ إلا على لذع الشمس ، حين تسخن الشمس !

نعم .. هكذا كان الموقف من سمنة المرأة ، ويحمل إلينا الشعر العربي دلائل متعددة على هذا .

يقول « امرؤ القيس » في قصيدته « فلا وأبيك ابنة العامري » ، يصف لنا حبيبته ويذكر محاسنها التي جعلته يبكي :

وأسبـل دمعـي كفض الجمـــان . . . أو الــدر رقـراقــة المنحـــدر

(يريد أن يقول إنه يبكي دموعاً مثل عقد تناثر جمانه) .

وإذ هـــي تمشي كمشي النــزيـف . . . يصـرعـه بـالكثيـب البهــــر

(النزيف ، السكران الذي لا يتماسك في سيره ، أما البهر فيعني الكلال وانقطاع النفس .. يريد أن يقول إنها من فرط سمنتها وامتلائها تمشي كالسكران وقد انقطع نفسها من التعب)

بــــرهــــرهـــــة رودة رخصــــــــــة

كخـــرعـــوبـــة البـــانـــة المنفطـــــر

(معنى برهرهة أنها مترجرجة ممتلئة ، أما رودة فمعناها شابة ناعمة. أما رخصة فتعني اللين مع النعومة والخرعوبة هي الغضة، أما البانة فهي قضيب البان المنفطر أو المنشق . يريد « امرؤ القيس » أن يقول إنها تترجرج إذا تحركت كما يترجرج قضيب البان المشقوق إذا هبت عليه الرياح) .

فتـــــور القيــــام ، قطيـــــع الـكــلام

نفتـــر عـــن ذي غــــروب خصـــر

(فتور القيام يعني أنها لا تقوم الا بفتور لثقل عجيزتها . أما قطيع الكلام فتعني أنها لا تتكلم كثيراً من الحياء .. أما الغروب فهو ثغر حسن الأسنان . وهو ثغر خصر أي عذب بارد) وهذه القضية نموذج لرأي الشاعر في المرأة .. وهو رأي لم ينفرد به «امرؤ القيس » وحده من بين الشعراء ، إنما كان هذا الرأي ــ كما نقول بتعبيرنا اليوم ــ ذوقاً عاماً يحكم النظرة إلى جمال المرأة .

إن المرأة الجميلة ــ قديماً ــ هي المرأة الممتلئة الثقيلة التي تترجرج إذا تحركت . وإذا جلست لم تجد للقيام ضرورة من فرط ما يحتاجه القيام من مشقة ، وبسبب الثقل الذي يشدها لجاذبية الأرض .

ومثلما كان جمال المرأة يكمن في سمنتها كان من فضائلها أن تكون أكولة .. يحدثنا « معبد بن خالد الجدلي » فيقول : خطبت امرأة من بني أسد في زمن زياد ، وكان النساء يجلسن لخطابهن ، فجئت لأنظر إليها وكان بيني وبينها رواق ، فدعت بجفنة عظمة

من الثريد مكللة باللحم فأتت على آخرها ، وألقت العظام نقية ، ثم دعت بجردل عظيم مملوء لبناً فشربته حتى أكفأته على وجهها . وقالت : يا جارية ارفعي السجف . فإذا هي جالسة على جلد أسد وإذا هي شابة جميلة ..

قالت : يا عبد الله أنا أسدة من بني أسد ، وهذا طعامي وشرابي ، فإن أحببت أن تتقدم فتقدم .. وإن أحببت أن تتأخر فتأخر ..

هذه صورة للمرأة .. ومعها صورة قالها « دعبل » في شعره :

صوت مضغ الضيوف أفضل عندي

من غناء القيان والعيدان

ولا ريب أن « دعبل » ما كان يقول كلمته السابقة لو أن زوجته لم تكن من هواة المضغ والبلع ، وكانت في نفس الوقت من هواة الطهو والتفنن فيه .

الخلاصة أن المرأة أيام أجدادنا كانت سمينة ..

وكان الرجل من أجدادنا إذا حدث زوجته قال لها : سيدتي لماذا أنت رفيعة كالفيل !

وثمة سؤال هنا : كيف أعجب الشعراء العرب بالمرأة البدينة ، وهم على ما هم عليه من ذوق رفيع في النظرة إلى الجمال ؟

اعتقد أن الأصل في الجزيرة العربية كان هو النحافة . ويتغنى الشعراء برشاقة الغزلان أو الظباء ، ولكن ندرة المرأة السمينة ــ ندرة شديدة ــ كان هو السر في بروزها في شعر الشعراء ..

من حقك يا سيدتي أن تختاري بين النحافة والسمنة . بين الرشاقة والرجرجة ، بين الغزال والفيل ، هذا كله من حقك .. المهم أن تكوني راضية عن نفسك .

كيف ظلمنا الحب بأيدينا ؟

أستمع إلى الموسيقى إذا جلست أكتب .

الموسيقى المجردة ، لا الموسيقى الخفيفة ولا موسيقى الأغاني .

هذه الليلة أحسست بأني أريد أن أستمع إلى أم كلثوم .. لا أدري لماذا ؟

ربما كنت أريد أن أستعيد ذكريات قديمة .

وربما كنت لا أريد أن أكتب .. من يدري ؟

أنا وانت ظلمنا الحب بأيدينا ... وجنينا عليه ... وجرحناه ! » .

فكرت وأنا أعتلي زورق الكلمات وأخوض في بحار اللحن ، في ظلم الحب ... كيف يظلم الإنسان الحب ؟

هل الحب كائن مخلوق ؟ هل يجري عليه ما يجري على الكائنات المخلوقة من ظلم ؟

إن الحب مخلوق غير مرئي . هو فكرة مجردة تعبر عن نفسها أحياناً بآلاف الأشكال ... ولكن الحب ذاته غير مرئي !

كيف يمكن ظلم مخلوق غير مرئي وغير مجسد .

ليست هناك مشكلة في ذلك

إننا نظلم الديمقراطية والعدل . وهما من المعاني غير المجسدة .

إن الأفكار والمعاني يقع عليها الظلم كما يقع على الأجساد البشرية . وتحس المعاني والأفكار بالظلم كما تحس به الأجساد البشرية .

كيف نظلم الحب إذن ؟

هل يكفي لظلم الحب أن نظلم الحبيب ، أم أن ظلم الحب أكبر قليلاً من ظلم الحبيب . أم أن تكرار ظلم الحبيب يؤدي إلى تأثر الحب ذاته ـ وهو فكرة مجردة ـ فيبدأ إحساسه بالظلم .

أسئلة كثيرة لا أحد يدري على وجه التحقيق إجابتها .

انطوى القلب نفسه وأحس بالظلم . سقط في بئر ملساء الحوائط ينمو عليها العشب . ظل القلب يهوي حتى ارتطم بالمياه في القاع . ارتعشت عظام الأسماك في قاع البحر من البرد . وتثلجت الشمس ، وتجمد كل شيء ، وتراجعت ابتسامتها وهي تتعثر في غصة الدموع .

انخفض الماء في النهر وارتفع طوفان الدمع في الصدر وانطفأ الوهج .

بكت هي ... ولم يستطع هو أن يبكي .

كان الظالم هو الذي يبكي !

أليس مدهشاً أن تنقلب الأوضاع في الحب فيبكي الظالم ويتحير المظلوم دون بكاء ؟

* * *

لم تزل أم كلثوم تغني ...

« ما حدش فينا كان عاوز يكون أرحم من التاني

ولا يضحي عن التاني ... » .

ـ انسحبت الرحمة حين تراجع الدفء .

ولم يعد فيهما من يريد أن يضحي من أجل الآخر . تذكر كل

واحد منهما أن يضحي ، وأن من الأفضل الآن أن تتوقف التضحية .
استيقظت الأنا داخل القلب .
نجحت أمطار القسوة في أن تروي الأنانية فكبرت شجرتها .
قالت هي : أنا لم أعد أستطيع أن أحتمل .
وقال هو : أنا أيضاً نفد صبري .
قالت : أنا تعذبت بما فيه الكفاية .
وقال : أنا تعذبت ولم أعد أحتمل .
قال هو : أنا .. أنا .. أنا ..
وقالت هي : أنا .. أنا .. أنا ..
انتهى الأمر وانتصرت الأنانية واندحر الحب وانهزمت المشاعر الحلوة .
لم يعد قيس يرد على ليلى حين يناديها أحد ... ولا عادت ليلى ترد حين ينادي أحد قيسها . مات بيت الشعر الذي يقول :

ينـادي المنـادي بـاسمها فأجيبـه
وأدعـى ... فليلى عـن نـداي تجيب

أيضاً اختفى الشعر الذي يقول :

إذا نظـرت نحـوي تكلـم طرفها
فجاوبهـا طـرفي ونحـن سكـوت
ولـو خلط السم المـذاب بريقهـا
وأسقيت منه نهلـة ... لشفيـت

لم يعد هذا الشعر موجوداً ...
انهار البيت وتقوض فجأة . وتشرد السكان وصاروا إلى الطرقات .

ضاع الحب حين استيقظت الأنانية . انكسر الحب بين عناد القلوب وتعلقها بالكبرياء وارتدائها عباءة « الأنا » !

ما زالت أم كلثوم تغني :

« وضاع الحب ضاع .. ما بين عند قلب وقلب ضاع

ودلوقتي لا انا بنساه .. ولا بتنساه

ولا بنلقاه ..

أنا وانت » ...

الموسيقى تبكي والناي ينتحب والأرض تدور حول الشمس والعاشق يدور حول نفسه .

شوائب تختلط بالحب

يوجد الذهب في الأرض مختلطاً بشوائب كثيرة ...

والحب هو ذهب الروح .

وهو يوجد في الحياة مختلطاً بشوائب كثيرة .

وكثيراً ما نخلط بين الحب وغيره من المشاعر ، ويؤدي هذا الخلط عادة إلى ضياع الحب ... أو على أقل تقدير إلى فساده ! !

في البداية ، نريد أن نميز بين الحب وبعض المشاعر التي تختلط به .

إن الحب أحياناً يختلط بالملكية .

يقول الإنسان : أنا أحب هذا الشيء ...

بينما هو في الحقيقة يتحدث عن حيازته لشيء أو ملكيته له .

والحب شيء ... والملكية شيء آخر .

وما أتعس الحب إذا دخل إطار الاستحواذ والملكية .

أحياناً يتصرف الإنسان تجاه من يحبه تصرفه تجاه شيء يملكه .

والإنسان ليس شيئاً قابلاً للتملك ...

وكل الذين تعاملوا مع الحب بمنظور الملكية انتهت قصص حبهم بالتحطم والذبول .

إن الأنسان مخلوق حر ...

المالك الوحيد للإنسان هو الله تعالى .

وحين يفهم الإنسان هذه الحقيقة ويفهم حقيقة عبوديته لله . يتحرر ويحصل على حريته .

هنا فقط وليس قبل ذلك ...

إذا كان الإنسان مملوكاً لله عز وجل . فكيف يعامله من يحبه من البشر باعتباره شيئاً مملوكاً له ؟ .

هكذا تفسد الملكية الحب .

إن الإنسان عادة يمارس حريته تجاه ما يملكه . وأحياناً يتصرف الإنسانفي ملكيته للأشياء تصرفاً قد لا يقره عليه الناس أو المجتمع . والإنسان في هذا كله مطلق الحرية .

لكن هذه الحرية التي تمتد للأشياء يجب ألا تمتد للأشخاص ، لأن الإنسان ليس شيئاً .

وخروج الإنسانعن الشيئية أمر لا يدركه كثير من المحبين .

* * *

أيضاً يختلط الحب بالرغبة .

والحب شيء ... والرغبة شيء آخر .

إن الرغبة تنطفئ حين يتم إشباعها ، أما الحب فيزيد بعد إشباعه وتمتد جذوره في الأرض . ويثمر ..

وأحياناً نطلق على رغبتنا اسم الحب . نتصور أننا أمام حب بينما نرغب في شيء .

ربما لأن هذا الشيء جديد ... أو ربما لأنه ليس في أيدينا ... وربما حبًّا في التغيير !

وهذا كله ليس حبًّا ولا يحسب على الحب .

* * *

أيضاً يختلط الحب بالأنانية .

ولعل الأنانية هي الشائبة التي يصعب فصل الحب عنها .

وتأخذ هذه الأنانية عادة صورة مدهشة في الحب .

حين نحب ، نحاول طبع المحبوب على صورتنا ، أو نحاول قهره على أن يكون صورة أخرى منا .

وهذه المحاولة هي الصخرة التي يتحطم عليها الحب عادة في قصص الحياة .

إن كل إنسان منا كون قائم بذاته ... عالم مختلف عن غيره .

صحيح أننا نتشابه في الخلقة ، فلكل منا عينان وأنف ووجه وقلب ورئتان ... ولكن هذا التشابه بين البشر يحمل في الوقت نفسه اختلافاً عميقاً .

ليس هناك إنسان يشبه إنساناً آخر ، لا في المزاج ولا في الطباع ولا في الشخصية ولا في القدرة العقلية ولا في الطاقة ...

وحين يحب أحدنا إنساناً آخر ويتزوجه . يحاول أن يجد فيه جزءاً من طباعه ، ويحاول أن يجد فيه وجوه شبه معه .

وهذا كله أمر طبيعي ...

الأمر غير الطبيعي أن ننفر من اختلاف الشخصية . والضرر أن نحاول تغيير هذه الشخصية لتصير مثل شخصيتنا . والمأساة أن نستمر

في المحاولات حتى لو أدى الأمر إلى تحطيم هذه الشخصية من أجل إعادة صياغتها مرة أخرى ، بحيث تكون صورة من شخصيتنا .

هذه المحاولة تنتهي عادة بأن يحطم أحد الزوجين زوجه ، ثم لا يعيد صياغته . إن التحطيم سهل ، لكن البناء صعب .. خاصة إذا كان هذا البناء يتم بالقهر والسلطان والعنف .

إن الحب الناضج هو الذي يسمح لكل شخصية بأن تنمو ... وإن كانت تختلف عن شخصيتنا .

والذين لا يحبون إلا أنفسهم يريدون من أحبائهم أن يكونوا على مثالهم ... وهذه قلة نضج ! .

تدور الدائرة وهي تطحن

الأرض كرة تدور حول نفسها وحول الشمس .

والشمس نجم يدور حول نفسه داخل المجرة .

والمجرة نجوم تدور في مداراتها حول نفسها وداخل الخلاء الكوني العظيم . ويبدو أن قوانين الدوائر تحكم الأحياء والكائنات .

في تركيب الدنيا ذاتها ما يشبه الدائرة ... دائرة تدور وهي تطحن كل شيء ، تولد الزهور ثم تكبر ثم تصفر ثم تموت .

يولد الأطفال فيحتفي بهم الكبار . يحبونهم ويطعمونهم ويسهرون عليهم ويقلقون من أجلهم ويكابدون آمالهم وأحزانهم ... ثم تمر الأيام وتمضي الدائرة فإذا أطفال الأمس رجال وأمهات اليوم ، وإذ بهم غداً شيوخ وعجائز ...

ليس على الأرض كائن ينجو من قانون الهرم والشيخوخة .

لا الحيوان ينجو ولا النبات ولا الجماد ولا الإنسان ...

وحياة الشيوخ قاسية يقول تعالى : « ومن نعمره ننكسه في الخلق أفلا يعقلون » .

تصوري أو تصور أنك تعيش في عالم تغير فيه كل شيء . وجوه الساسة ووجوه أصحاب الحوانيت ووجوه السائرين في الطرقات

ووجوه من يظهرون في التلفزيون .

كل شيء تغير ، الشوارع والمباني والناس . لم يعد لنا أصدقاء في هذا الوسط ، كل ما حولنا جديد يرمقنا باستغراب وكأنه يقول :

ـ لماذا لم نمت حتى الآن ؟

كبر أصدقاؤنا أو ماتوا ، ذهب عملنا إلى المعاش ، ليس هناك من يسألك رأيك أو يريد أن يستمع إلى حكمتك . ليس هناك من يستشيرك أو يريدك أو يتوقف ببعض الاهتمام عندك .

كل إنسان يجري لنفسه وأنت تقف وحدك .

باختصار ...

يدور الضوء عن الشيخوخة ويتركها في ظلام موحش من قلة الاهتمام أو قلة الاكتراث . وعادة يصبح الشباب نافد الصبر من الشيخوخة ، وهناك دول حلت هذه المشكلة حلاً تعساً ببناء بيوت للمسنين أو العجائز .

وهذا الحل في دول أوروبا وأميركا يبدو مثل حل جراحي فيه بتر لهؤلاء العجائز واستبعادهم في بيوت المسنين ... ويتفق هذا الحل مع قسوة هذه المدنيات وخلوها من الرقي والرحمة .

فلننظر كيف تحل الحضارة الشرقية مشكلة كهذه .

إن الحضارة الإسلامية تنظر إلى الشيوخ والكبار نظرة بالغة الإكبار . إن عقوق الوالدين كبيرة من الكبائر في الإسلام .

وتأمر الشريعة الإسلامية بإحسان معاملة الوالدين . وتنهي هذه الشريعة الكريمة عن أي سوء أدب أو تطاول على الوالدين ، بل إن لفظة التأفف ممنوعة إزاء الأمهات والآباء ...

« فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما » أي أن التضرر في حده الأدنى ممنوع .

والتضرر في حده الأعلى ممنوع .

لا أف تقال ولا غلظة فى المعاملة .

أيضاً تعتبر الحضارة الإسلامية أن إذلال الابن والبنت لنفسيهما إزاء والديهما ليس إذلالاً وإنما هو رحمة من الابن أو البنت ، ورحمة من الله للابن أو البنت : « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » .

وفي الشريعة الإسلامية يفترض النص أن الأب والأم كانا مشركين كافرين به . ودعيا الابن إلى الكفر ، فماذا يكون موقف الابن ؟ يأمر الله تعالى الابن أن يتصرف كالتالي :

« وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعمها ، وصاحبهما فى الدنيا معروفاً » ..

إذا كان المعروف هو الأمر لابن إزاء أبوين مشركين ، فماذا يكون المعروف تجاه والدين مؤمنين .

سلام القلوب ... أولاً

ما هي قيمة أن يعيش الإنسان في سلام وحب ؟

وهل لهذه القيمة أهمية قصوى ، أم أن أهميتها من النوع المتواضع الذي يمكن الاستغناء عنه ؟

إن أجوبة هذه الأسئلة يمكن العثور عليها في تجربة من التجارب التي قامت بها احدى الدول الأوروبية .

وقعت التجربة في ألمانيا ...

نزع بعض الأطفال من أسرهم ، وتكفلت بهم أعلى سلطات في الدولة ، وأحيطوا برعاية وعناية هائلتين .

أشرفت عليهم مربيات من طراز رفيع . وأطباء على درجة عالية من المهارة ، وقدم اليهم أفضل الغذاء والكساء وأفضل تعليم وتوجيه . ثم أجريت لهم قياسات لاختبار مدى اتزانهم النفسي .

كانت النتيجة أنهم يقلون في الاتزان النفسي عن الأطفال الذين تربوا وسط آبائهم . رغم كل ما تعرض له هؤلاء الأطفال من معاناة وسوء تغذية وأحوال اجتماعية غير مستقرة .

وأثبتت نتيجة البحث أن توفير كل الظروف الملائمة للحياة والنمو لا يصلح بديلاً عن الحب والسلام .

أثبتت التجربة أن الحب مع المتاعب المادية أفضل من حياة مستقرة بلا متاعب وبلا حب .

هذه التجربة التي تمت على أطفال ولدوا حديثاً ليست أول تجربة من نوعها ، وهي تكشف عن حقائق عديدة .

في الطفولة يكون الحب سبباً من أسباب الاتزان النفسي للأطفال . ومعظم الأطفال الذين عاشوا طفولة قاسية بلا حب تعرضوا خلال مراحل عمرهم المختلفة إلى متاعب كثيرة .

ويمكن القول إن جزءاً كبيراً من الانحراف نحو الجريمة ينبع من طفولة كانت تخلو من الحب . أو كانت تخلو من السلام .

وثمة نقطة هامة نحب أن ننبه إليها هنا .

إن صراعات الآباء والأمهات وخلافاتهم يمكن أن تؤدي إلى الإخلال بتوازن الأطفال ... حتى لو كان الأب يمنح حبه لأطفاله وكانت الأم هي الأخرى تمنح حبها لهم .

أي أن المتاعب الزوجية والمشاجرات بين الزوجين ـ رغم وجود عنصر الحب ـ كفيلة بأن تدمر التوازن النفسي للأطفال .

ولقد ثبت أن فقر الآباء ومتاعبهم المادية أقل في التأثير على توازن الأطفال من المتاعب المعنوية .

والحقيقة أن الإنسان مخلوق شديد الحساسية .

إن ورقة التصوير الحساسة التى يفسدها التعرض لأى ضوء ليست أكثر حساسية من الإنسان .

الإنسان مخلوق مركب ومعقد وأعظم حساسية .

وكل تجربة تقع للإنسان ، كل كلمة يسمعها الإنسان . كل

صورة يشهدها . وكل ما يمر به طوال يومه وطوال عمره ... يؤثر فيه .

يتم تسجيل كل شيء في العقل .

يتم التسجيل في العقل بالصوت والصورة واللون والرائحة .

يحتفظ العقل بكل شيء .

وهذا هو كتاب الإنسان الذي تحدثنا عنه الآية القرآنية الكريمة : « وقالوا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها » .

إن العقل البشري هو معجزة الإنسان ، وهذا العقل يتأثر بما يقع في طفولة الإنسان .

ومن هنا ينبه الأطباء النفسيون وعلماء السلوك إلى ضرورة توفير حد أدنى من الحياة الوجدانية المستقرة التي تخلو من المتاعب .

ويرى الباحثون أن موت الأب أو الأم أقل تأثيراً على الأطفال من حياتهم وسط معارك لا تنتهي إلا لتبدأ :

إن موت الأب أو الأم يعلم الأطفال الحزن والرقة . وربما ساعدهم هذا الحزن على احتمال أحزان الآخرين وفهمهم ...

ولكن المعارك الزوجية التي يعيش فيها الأطفال تحطم نفسياتهم وتجعلهم يكبرون وداخلهم إحساس بالقلق .

وحين يولد الإحساس بالقلق في نفس الطفل يصعب عليه أن يتخلص منه بعد ذلك ... وربما وصل الطفل بعد أن يكبر إلى أهم المناصب . ولكنه يظل مفتقداً الأمان الداخلي .

لنحذر إذن أن نطلق العنان لأنفسنا أمام أطفالنا .

لنحذر أن نملأ البيت بهذا الشجار الذي تصل إلى آذان الأطفال أصداؤه فيتحطمون دون أن نحس أو نشعر .

إن ضبط النفس أولى بنا .

وقديماً قال المثل العربي : « إن معظم النار من مستصغر الشرر»...

فلنحذر أن نترك هذا الشعور يمتد إلى حياة أبنائنا ويلتهم إحساسهم بالأمان .

شاعرٌ ... وحلم الدولة !

منذ ما يزيد على خمسين سنة ، كان حلم الشاعر الباكستاني محمد إقبال أن تنشأ دولة تخص المسلمين وتنفصل عن الهند .

حملت هذه الدولة فيما بعد اسم باكستان ..

كان هذا الحلم سنة ١٩٣٠ .

ولقد شاءت إرادة السماء ألا يعيش الشاعر ليرى حلمه وهو يتحقق . فقد مات سنة ١٩٣٨ قبل إنشاء الباكستان بتسع سنوات ، ولكن موته لم يكن ليؤثر على حلمه .

لقد صنع الحلم أجنحته الخاصة وطار كالنسر يشق الهواء والعناء متجهاً نحو عشه في قلوب البشر .

يوماً بعد يوم راح الحلم يكبر ..

وأخيراً تحقق بعد ١٧ عاماً من التحليق والطيران والدماء والمعاناة والآلام .

وقد صار الشاعر العظيم محمد إقبال هوالشاعر الوحيد الذي أنشأ ، بأحلامه ، دولة . والأصل أن أحلام الشعراء تدور عادة حول رغائب النفس أو القلب ، ولكن شاعرنا العظيم تجاوز نفسه إلى الحقيقة ، ولم يحب ذاته كما أحب الإسلام ، ولم يكترث لأمنه

وراحته كما اكترث لإنشاء دولة مسلمة ...

وكان جزاؤه تحقيق حلمه النبيل ...

ولقد كانت حياة محمد إقبال نفسها قصيدة من الشعر الواعي الذي يدرك الحقيقة ويملك المقدرة على تركيزها في عبارة موحية .

وقد حفظ إقبال القرآن منذ طفولته وأدرك الشعر منذ صباه . ونظر في حال العالم الإسلامي في شبابه .. فأدرك أن العالم الإسلامي في محنة .

وقد أدرك إقبال في أيامه . أن أئمة الدين فقدوا تمسكهم بروح الإسلام وركزوا جهدهم في القشور ، أما الصوفية فلم يكونوا ثورة ضد التدين المظهري ، وإنما انقسموا إلى فرق تدعو للإسلام وإنكار الذات .

وشاع بين الجماهير الإسلامية القول بالقضاء والقدر بطريقة محزنة أفسدت كل الجهود وأخذت الدعوات القومية بمفهومها السياسي الغربي تتناحر وبذلك لاح في الأفق خطر القضاء على روح الإسلام العالمية ، واندلعت نار الحزن في النفس على الحلة البيضاء أو الإسلام كما كان إقبال يسميه .

وانطلق محمد إقبال يثير في المسلمين روح الإسلام الحقيقية . انطلق محاولاً تصحيح مسار الأمة الإسلامية في طريقها نحو الله .

وخصص إقبال حياته كلها لهذه المهمة الإسلامية .

ولا ريب أن جهده بورك من السماء ، وكان إخلاصه في رسالته سبباً في اعتباره أحد الدعاة المخلصين إلى الله عز وجل .

وليس بعد هذا الشرف تشريف .

ومن أهم كتب إقبال كناشر كتابه « تجديد الفكر الديني » ومن أهم كتب إقبال الشعرية كتابه « جاويد نامه » أو « رسالة الخلود » .

أما أهم أساتذته فيتقدمهم جلال الدين الرومى شاعر الصوفية الأكبر.

الحارس الحقيقي للإنسان

يقولون في الأمثال العامية ، العربية : « العين عليها حارس » .

وهم يقصدون بذلك أن رحمة الله تعالى تحمي عين الإنسان دائماً ، إذ يلاحظ الضمير الشعبي في معظم الحوادث التي تقع للإنسان أنها تكون جوار العين بشعرات أو ملليمترات .. وأن الله سبحانه وتعالى يحمي العين دائماً من كثير من الآفات .

هذا الحارس المجهول للعين ، هل هو وحده الذي يقوم بواجب الحراسة ؟

بمعنى آخر . أليس هناك حارس للإنسان ذاته كإنسان ؟

إن الملائكة التي تحرس الإنسان أعظم كثيراً من قدرة الإنسان على التصور والتخيل ، وبين هؤلاء جميعاً روح داخلي يقوم بحراسة الإنسان ! !

روح ملائكي يمكن تسميته ... القيم الأخلاقية .

ولو علم الشباب أهمية هذا الروح لما نسيه منهم أحد ، ولتغير معنى الشباب في نفوس الشباب .

إن الاصل في الشباب أنه مساحة زمنية يكون الإنسان فيها قويًّا مندفعاً وقادراً ومليئاً بالأحلام .

وفي القوة المندفعة آلاف المخاطر .. وفي مغريات الحياة أيضاً آلاف الفخاخ .

كيف يحمي الشباب نفسه من هذا كله ؟

ليس هناك غير حل واحد أشار إليه الكتاب العظيم الذي نزل به الروح الأمين على قلب خاتم النبيين : « واعتصموا بحبل الله جميعاً » .

إن الاعتصام بحبل الله يعني إيقاظ الروح الديني في القلوب والبصائر ، وذلك يعني قيام الحراسة النابعة من القيم الأخلاقية .

ولقد قدم لنا الشباب في صدر الإسلام نماذج رفيعة لهذه القيم الأخلاقية ومدى الحماية التي توفرها للمسلم .

في حرب من حروب الفرس ، حمل أحد الجنود المحاربين قلنسوة « يزدجرد » القائد الأعلى لجيش العدو ، وكانت هذه القلنسوة مرصعة بالجواهر والماس والياقوت .

وحين وضعها الجندي بين يدي عمر بن الخطاب ، نظر عمر إلى ملابس الجندي فوجدها ممزقة .. ونظر إلى نعله فوجدها مرتقة تكاد تقع من قدمه ... وتأمل أمير المؤمنين شحوب الجندي وسوء تغذيته وفقره ، كما تأمل في الوقت نفسه أمانته وورعه وخشيته لله وحبه للإسلام .

وقال عمر كلمته الشهيرة : « الحمد لله أن جعل في جنود عمر من يعف ويستكبر على عرض الدنيا الزائل » .

ولنرسم الآن في أذهاننا صورة لهذا الجندي الفقير الذي جاء يرمي ثروة هائلة تحت قدمي عمر بن الخطاب .

لقد حمل الثروة أياماً وأسابيع وشهوراً طويلة .. ولكن كان يتأملها

كما يتأمل الغني قطعة من الطوب ملقاة في الفلاة .

كان هذا الجندي غنياً رغم فقره ..

كان فقره مبعث غناه ..

كان الحارس الحقيقي داخله يقف بسيف العقيدة وهو ينظر بعينيه معاً إلى الجنة

والذين ينظرون إلى الجنة لا يلتفتون إلى تراب الدنيا ولو كان قطعاً من الماس والجواهر .

الضعف المغلف بالحنان

أيهما أقوى : الرجل أم المرأة ؟

كان هذا هو موضوع النقاش المحتدم ... وجلست أستمع للآراء المتعارضة .

ثم جاء دوري فقلت :

سوف أجيب عن السؤال بسؤال ... والآن إليكم السؤال :

أيهما أقوى : نقطة الماء أم الرصاصة ؟

إن للرصاصة صوتاً مدوياً إذا أطلقت ... وليس لنقطة الماء صوت إذا سقطت .

والرصاصة تنفذ في الجسم الإنساني وتقتله ... بينما نقطة الماء تسيل على الجسم الإنساني ولا تؤثر فيه .

الرصاصة إذن أقوى من نقطة الماء ... هذا ما تقود إليه المقدمات السابقة . ورغم ذلك تعالوا ندرس تأثير الرصاصة في صخرة ، وتأثير نقطة الماء في صخرة .

إن نقطة ماء تقع بانتظام على صخرة ، تثقب الصخرة وتنفذ فيها ، بينما لا تستطيع الرصاصة أن تنفذ في الصخرة . ولو ضربنا صخرة بمدفع رشاش ، فسوف يتطاير الرصاص ويرتد إلى ضاربه ولا يؤثر في الصخرة .

نقطة الماء إذن أقوى من الرصاصة ، هذا ما تقوله المقدمات السابقة . أي أن الأمر نسبي تماماً .

أحياناً تكون الرصاصة أقوى من الماء ، وأحياناً يكون الماء أقوى من الرصاصة ... وهذا القول يصلح مع الرجل والمرأة .

إن الرجل هو الرصاصة المنطلقة ... بينما المرأة هي نقطة الماء الرقيقة التي تثقب ما لا تستطيع الرصاصة ثقبه .

وهذا هو الفرق بين الرجل والمرأة ...

إن الرجل أحياناً يفرقع أو يدوي كالرصاصة ، ولكنه لا يفعل شيئاً كما لا تفعل الرصاصة في الصخرة . أما المرأة فتنساب في هدوء الماء لتفعل الأعاجيب .

وأحياناً يكون الرجل أقوى من المرأة .

وأحياناً تكون المرأة أقوى من الرجل .

في السلام والحياة اليومية والمشاكل التافهة تكون المرأة أقوى من الرجل .

وفي الحرب والأزمات الكبرى يكون الرجل أقوى من المرأة .

والجيوش في العالم كله تتألف من رجال ... باستثناء اسرائيل ، جيشها هو وحده الذي يتألف من رجال ونساء .

ولو كانت النساء أقوى من الرجال في الأزمات لتألفت الجيوش من النساء .

ولكل نوع من النوعين قوته في لحظة ما من لحظات الحياة أو الوجود . إن الله قد كتب على بنات حواء مسؤولية الحمل وآلام الولادة. والمرأة هنا قوية أشد ما تكون القوة ، لأن آلام الولادة رغم وجودها

لا تمنع النساء من الولادة ولا تقف عقبة أمام هذا السيل الإنساني من عمليات الميلاد .

وأحياناً يكون الرجل أقوى بهدوء أعصابه وقدرته على مواجهة المشاكل واتخاذ قرار فوري سريع فيها .

وأحياناً تكون المرأة أقوى من الرجل بحنانها ... مجرد الحنان . والحنان قوة هائلة من القوى التي أودعها الخالق في كيان المرأة .

روت كتب التاريخ أن قيصر روما قال يوماً لابنه الشاب : هل تعرف أنك أقوى رجل في روما ؟

قال الابن : أنا ... كيف أكون أقوى رجل وأنا لم أبلغ السادسة عشرة بعد ؟

قال قيصر لابنه : إن قائد الجيوش يتحكم في الجيوش ، والجيوش تتحكم في روما ، وأنا أتحكم في القائد ، وأمك تتحكم فيّ ، وأنت تتحكم في أمك ... أنت أقوى إنسان في روما !

وتجيد النساء عادة لعب الدور الثاني والوقوف وراء ستارة وتحريك البطل الأصلي .

ويحدثنا التاريخ عن نساء كن يتحكمن في رجال كانوا يحكمون ربع الكرة الأرضية .

وتبلغ المرأة ما تريد أن تبلغه بالتكرار والإلحاح ، شأنها شأن إعلانات التلفزيون . وهي تنتصر بالتكرار والإلحاح ... كما تشق طريقها بالحنان والضعف .

وما أقوى الضعف المغلف بالحنان .

رؤى في الحب ...

تحدث كثير من الفنانين والأدباء والشعراء عن الحب ، وتجيء كلماتهم عادة مثقلة بعبق اللغة الخاص بكل واحد ...

نظر « فان كوخ » إلى الحب بلغة الضوء والظل ... وقرر الرسام الهولندي في البداية : « أن أفضل الطرق لمعرفة الحياة أن تحب أشياء كثيرة ... » .

وقال في كلمة سماها « المصباح المضاء » .

الحب شيء خالد ... قد يتغير الإحساس وتتغير زاوية الرؤية ، ولكن الجوهر يبقى عل حاله ...

وهناك دائماً فرق بين الإنسان قبل أن يحب وبعد أن يحب ، وهو فارق يشبه مصباحاً لم يشتعل بالضوء ، بعد ، ومصباحاً قد أشعلناه !

إن المصباح كان هناك قبل إضاءته ... ولكنه الآن يسكب شعاعه في المكان وينيره ... وهذه هي وظيفة القلب الإنساني .

أما الكاتب الفرنسي « أنطوان دي سانت اكسوبري » فقد نظر إلى الحب من الزاوية الفكرية ... أو من زاوية الاشتراك في هدف واحد .

قال : ليس الحب أن ينظر اثنان لبعضهما ... إنما الحب أن ينظر الاثنان في اتجاه واحد .

أما الفيلسوف الصيني « لاو تزو» فنظر إلى الأمر من زاوية الرقة البحتة .

قال : إن رقة الكلمات تخلق الثقة ... ورقة التفكير تخلق العمق ... أما رقة المشاعر فتخلق الحب .

أما المفكر العربي الفذ عباس العقاد فنظر إلى الحب من زاويته الإنسانية وأفصح عن رأيه هذا في روايته الوحيدة « سارة » ...

قال : إذا ميز الرجل المرأة بين جميع النساء فذلك هو الحب ...

وإذا أصبحت النساء جميعاً لا يغنين الرجل ما تغنيه امرأة واحدة فذلك هو الحب ...

وإذا ميز الرجل المرأة لا لأنها أجمل النساء ، ولا لأنها أذكى النساء ، ولا لأنها أوفى النساء ، ولا لأنها أولى النساء بالحب ... ولكن لأنها هي بمحاسنها وعيوبها ، فذلك هو الحب !

وينبئ رأي العقاد عن نوعية عاشق يحكمه قلبه لا عقله . فمثل هذا العاشق لا يتعلق بجمال ولا ذكاء ولا وفاء ولا أفضلية ، إنما يتعلق بها هي ... بعيوبها ومحاسنها ، بغبائها وعنادها وقسوتها ووحاشتها أيضاً ... بل ان العاشق يذهب إلى أبعد من ذلك فيرى أن بلادة الحبيبة حكمة ترتدي قناع البلادة ، ويرى أن وحاشتها هي المقاييس الجديدة في الجمال، ويرى أن قسوتها رحمة مبطنة بالشدة .

ولعل هذا هو السر في إلحاق صفة العمى بالمحب وقولهم :

« إن الحب أعمى » ، بمعنى أنه لا يرى الحقيقة .. وإنما يمضي

العاشق في خلق صورة جديدة للحبيبة داخله ، صورة يرسمها قلبه لا عقله ، صورة يتخيلها وجدانه لا حواسه . ومع الوقت يصبح هذا الخيال هو الحقيقة ، وتتحول الحقيقة إلى وهم أو خيال .

وبهذا التفجير النووي الجديد داخل العاشق تختفي الدنيا القائمة وتولد دنيا جديدة ...

ولقد وصف لنا العقاد هذه الدنيا الجديدة وهو يصور دخول « سارة » عليه ، قال : « وينفتح الباب وينقسم العالم إلى قسمين لا ثالث لهما : قسم فيه كل شيء ... وقسم ليس فيه شيء . أو قسم موجود وقسم ليس له وجود . البيت الذي يضمها هو القسم العامر الزاخر الحافل الوهاج ، والدنيا هي القسم المهجور الدي لا تتسع قاراته وبحاره ومن فيها وما فيها لأوسع من مكانها في خرائط الأطفال » .

وقد كان العقاد عاشقاً طاغية شأن كل فرسان العشق ، كان يطلب كل شيء أو لا شيء ... لم يكن لديه غير الحدالأقصى ، فلا تقريب ولا توسط في هذه الأمور

كتب يقول : « إن الرجل الذي يهب المرأة ساعة من يومه ، يكتفي منها بساعة من يومها . ولكن هل يكتفي منها بتلك الساعة وهو يهب لها كل ساعاته وأيامه وينسج حولها ماضيه وحاضره ، ويحجب بيديه ضياء المستقبل الذي يطلع عليهما مفترقين كأنه يطمع من الدنيا في غرام بغير فراق ؟ إن الابن لا يكون ابناً أو نصف ابن ، وأن التحفة النفيسة لن تكون صحيحة أو نصف زائفة ... فلا تقريب ولا توسط في هذه الأمور» .

هذه آراء أربعة من الغرب والشرق في الحب ...
لكل منهم لغته الخاصة في التعبير .
ألا ترين يا سيدتي أن التعبير الشرقي هو الاصدق .

صحراء رائعة ... اسمها الشباب !

كان شبابي صحراء رائعة تمتد حتى تلتقي فيها الرمال بالأفق ، وكان خط الرمال الأصفر يلمس زرقة السماء فلا تعرف أيهما الذي أقبل نحو الآخر ... ووسط هذه الصحراء كانت خيمة العقل قائمة ومنصوبة وحولها أحلام مجنحة لا نهاية لطموحها ورغبتها في الطيران ، ولا قدرة لها على الطيران إلا مثلما طار عباس بن فرناس .

باختصار .. كنت من النوع المنزوي المستوحش الخجول . كانت الدنيا كلها ، بكل بحارها وجبالها ومدنها وقراها وأنهارها وأشجارها ، موضع اهتمامي الخاص .

وهذا شأن الشباب ، إن قوته العفوية وبراءته تصلانه عادة بقلب الكون ، فيتأثر بكل الأحداث ويخفق قلبه مع أبعد نجم في السماء .

والشباب هو القوة المندفعة التي تشبه حصاناً بريًّا لم يروضه أحد بعد ، ولسوف يجري هذا الحصان البري في الصحراء كما يحلو له ، وكلما انحدر العرق على جسده أحس بالقوة وعاود جريه .. المهم ألا نترك هذا الحصان يجري دون هدف .

ولقد أدركت من شبابي المبكر مدى القوة الضائعة التي يمكن أن تبددها مرحلة الشباب . وحرصت أن أنفقها في موضعها .

كما أدركت أن صحراء الشباب تضم واحات جميلة وتضم في الوقت نفسه رمالاً متحركة .. والأفضل أن يلتصق المرء بالواحة ويبتعد عن الرمال المتحركة التي تبتلع كل شيء يخطو فوقها ! !

ولكن الصراع ينشب في نفس الشباب عادة من رغبته في الاكتشاف وعدم قدرته المادية على السير والترحال والحركة .

وهنا يبرز دور القراءة ..

إن الكتاب الجيد سفينة تستطيع أن تحمل عقلك وروحك إلى أماكن لا تدري عنها شيئا ، وإلى معلومات لم تكن تعرفها من قبل ، وإلى دنيا من المشاعر والأحاسيس التي تزيد في ثرائك .

وهكذا تعلمت القراءة في شبابي .. وقد طرحت على نفسي سؤالاً بسيطاً في بداية الشباب : من أنا ؟

فكان الجواب : أنا مسلم .

وبحثت في كتاب المسلمين العظيم المقدس عن أول آية نزل بها الروح الأمين جبريل عليه السلام على آخر الأنبياء صلى الله عليه وسلم .

كانت الكلمة أمراً حاسماً بالقراءة : « اقرأ باسم ربك الذي خلق » .

وفهمت أن أول أمر وجهه الله تعالى إلى المسلمين هو الأمر بالقراءة ، والتزمت بهذا الأمر أكثر مما التزمت بأي شيء آخر في حياتي .

ولم أندم يوماً واحداً قط من هذا الالتزام .

صحيح أنني ضيعت أجمل أوقات حياتي منكباً على كتاب أو منحنياً على الورق .. ولكن عقلي سافر إلى أرجاء الكون المرئي والخفي ، وسافر معه القلب وزاد ثراء الوجدان دون أن أنفق شيئاً في المقابل .

ولقد اعتدت في شبابي أن أقرأ في اليوم كتاباً ، وكان الأصدقاء والأهل يشفقون على نظري من كثرة القراءة ، ولكن الأيام أثبتت أن قلة القراءة تضعف النظر أكثر مما تضعفه كثرة القراءة .. بل إن تدريب العينين على القراءة يقويهما في نهاية الأمر .

وليست لدي نصيحة للشباب الا امتثال الأمر الإلهي : « اقرأ باسم ربك الذي خلق » .

حياد القلب قد يكون أحياناً ... جريمة

شيء جميل أن يدرس الشاب العربي في أوروبا أو أميركا .

شيء طيب أن يسافر لاستكمال علومه والاستبحار فيها ...

ولكنه شيء محزن أن نحس أن جزءاً من شبابنا الذي يدرس في الخارج يقطع صلته بدينه ، أو يقطع صلته بأمته ، أو يقطع صلته بجنسه .

نعرف أن في شبابنا في الخارج نماذج ترتبط ـ بدينها وأمتها وجنسها كل الارتباط ...

ولكن السؤال قائم :

لماذا ينطلق الشاب اليهودي كالإعصار في خدمة الصهيونية ؟

وينطلق زميله الأوروبي أسرع من البرق في خدمة الاستعمار ؟

بينما يقف المسلم محايد القلب بارد الشعور ؟

هذا هو السؤال الذي يطرحه الأستاذ الشيخ محمد الغزالي ...

وهو سؤال وجيه حقًا .

وهو يسمى مثل هذا المسلم « المرتد القلب » ...

والتسمية دقيقة ، والموقف أدق منها فما هو الحل ؟

يقول الشيخ الغزالي : إن حل هذا الموقف يكمن في إحياء ثقافتنا الذاتية .

وفي تصوري ، أن الحل هو الثقافة الذاتية والشخصية الإسلامية .

وأحسب أنه لم يذكرها لوضوحها وبديهيتها . غير أنه يعود إلى القول : إن الاستعمار الثقافي نجح في ضرب شخصيتنا المعنوية ، وفتنة الألوف عن عقائدهم ، كما نجح في طي شرائعنا وبلبلة ألسنتنا وتحقير شرائعنا ودمغنا في المجتمع الدولي بأننا بلا صبغة ولا هوية .

وهذا هو الانهزام التام ...

هذه الكلمات هي جوهر القضية ولب الموضوع .

وأعترف أن حياد القلب قد يكون أحياناً جريمة ...

كيف يقف المسلم على الحياد بقلبه بينما أصحاب العقائد الباطلة يخدمون عقائدهم بقلوبهم وعلومهم وأسلحتهم ، وثقافتهم ؟

إن الأمر في حاجة إلى اعادة نظر ...

نريد أن يعيد الشباب النظر في كل الزخارف التي تصطبغها حضارة الغرب أو مدنيته ... وتطمس بها شخصية شبابنا .

إن شخصية المسلم تختلف كل الاختلاف عن شخصية غيره . وبقاء الشخصية الإسلامية في حالة « حركة » و« فعالية » يستوجب أن يكون المسلم حريصاً على ثقافته وأصالته وهويته ...

ولا تعارض بين الحرص على الثقافة وطلب العلم ، ولا تعارض بين الهوية والمعرفة ...

ثم تأتي النقطة الجوهرية :

وهي توظيف هذا العلم المكتسب في خدمة البيئة الإسلامية والمجتمع الإسلامي ..

وهذا هو أول الطريق نحو رفع الهزيمة والجهاد من أجل النصر .

هل أنت شاب حقاً ؟

هل أنت شاب حقًّا ؟

هل تعرف ما هو الشباب ؟ هل تعرف معناه ؟ لا تقل لي إن عمرك بين العشرين والثلاثين .. وحتى لو كنت لم تبلغ الثامنة عشرة بعد ! !

ليست السن مقياساً للشباب ، ولا هي الدليل عليه . وكم من شباب كهول ، وكم من كهول شباب .

يجب أن تعرف ، كما يقول الشاعر الأميركي « صامويل أولمان » ، ليس الشباب زمناً من أزمنة الحياة ، وإنما هو شعور في النفس وإرهاف في العزيمة وتوقد في الخيال ونشاط في العواطف .. وغلبة الشجاعة على الخوف والتهيب .

وليس الفرق الحقيقي بين الشيخوخة والشباب سوى الفرق في الشعور . إن احتدام الشعور عند الشباب دليل على شبابهم .

كما أن توقد الخيال عند الشباب دليل على شبابهم . والخيال هو المركبة التي يستقلها الإنسان عادة من أجل تغيير الحياة حوله ، ولولا الخيال الجامح لبقيت معظم اختراعات الإنسان وابتكاراته دفينة في زوايا النسيان والعدم .

يقول الشاعر الأميركي أيضاً : إن أحدا لا يهرم لأنه عاش عدداً معيناً من السنين .

إنما يهرم الناس حين يهجرون مثلهم العليا جانباً .

ومر السنين يترك الجلد مجعداً .

ولكن ترك الحماسة « يكرمش » الروح .

وأسرع استدعاء للشيخوخة أن تعيش في قلق وشك وعجز عن الايمان بقدرتك وخوف من الغد وقنوط من اليوم ... وهذه هي السنون الطوال التي تحني الرأس ، وترد الروح الناطق تراباً في تراب .

تأمل كيف يضع الشاعر يده على فكرة تجاعيد الوجه التي تقع من مر السنين ، وتجاعيد الروح التي تحدث حين يفقد الإنسان حماسته .

ثم تأمل ربطه الجميل الفني بين شيخوخة الجسد وشيخوخة الروح . إن السنين حين تمضي تؤدي بالضرورة إلى شيخوخة الجسد .. هذا قانون عام ينطبق على الحياة والأحياء . لكن هذا القانون لا يمس الروح . للروح قوانين أخرى تتمثل في الحماسة ... والحماسة هي التعبير الذي يستخدمه الغرب بينما نستخدم نحن تعبير الايمان .

إن الايمان هو العنصر الأساسي الذي يعتبر مقياساً لشباب الروح . حين يؤمن الإنسان بالله وتحسن معرفته به ، يفهم الإنسان دوره في الحياة ، يعرف أنه خليفة الله تعالى في الأرض . وبإدراك شرف الخلافة ندلف إلى مسؤولياتها ، وبمعرفة مسؤولياتها نمتلئ بالوعي لوجوب تغيير شكل الحياة وتركها أفضل مما وجدناها عليه حين ولدنا .

ومن هنا تبدأ الحماسة ...

وطالما اشتعلت الحماسة في قلبك وظلت مشتعلة فأنت شاب .

فان خمدت حماستك وانطفأت النيران المقدسة في قلبك فقد هرمت يا صديقي وشخت ، وإن كنت لا تزال في العشرين .

نعم ... إذا وهنت الأسباب التي بينك وبين الحياة ، إذا طمرت حبة قلبك ثلوج التشاؤم والشك واللامبالاة ... إذا حدث هذا فقد صرت شيخاً .. وعليك رحمة الله ! !

خطر ... ممنوع الاقتراب !

تتغير الفصول على الأرض ، فيشتد البرد في الشتاء ، ويرق الجو في الربيع . ثم يتقدم الصيف ، ثم يستولي الخريف على الطبيعة .. وتبلغ درجة الحرارة في الصيف فوق الأربعين ، وتهبط في الشتاء في مناطق في الأرض إلى ما تحت الصفر بثلاثين درجة .

أي أن التغير قانون من قوانين الهواء المحيط بالأرض . والأرض ذاتها ليست سواء ، وإن خضعت كلها لقانون التغير .

ثمة صخور في هذه البقعة ، وثمة رمال في مناطق أخرى ، وهناك طمي أسود خصب يصلح للزراعة في مناطق ثالثة ..

وفي السماء يتغير القمر ذاته ، يبدأ هلالاً صغيراً ، ثم يكبر ، ثم يتحول إلى بدر ، ثم يعود بعد كماله إلى النقصان .

حتى رائحة الهواء تتغير هي الأخرى .

في بعض المناطق نرى الهواء محملاً برائحة زهور البرتقال أو زهور المشمش . وأحياناً يحمل الهواء رائحة الياسمين أو الفل ، وأحياناً يحمل الهواء رائحة البحر الرطبة أو الصحراء الجافة ..

أينما أدرنا النظر حولنا اكتشفنا أن التغيير والاختلاف والتباين قوانين تعمل عملها في صمت .

وهناك ألف لماذا ولماذا على مائدة العقل !

وهي كلها أسئلة بلا جواب ، وإن كان لها جواب علمي ...

هل بعد هذا كله تعجب أو تسأل : لماذا يتغير مزاج الإنسان من السرور إلى الحزن أو من الكآبة إلى الفرح ؟

إن الإنسان أرض وسماء . صنع الإنسان من عناصر الأرض . صنع من طين الأرض .. وطين الأرض يختلف من مكان إلى مكان .. كما يتباين من بقعة إلى بقعة ..

رغم اختلاف طينة كل إنسان ، فقد نفخ الله تعالى الروح الإلهي في الإنسان . وهنالك تمت المساواة الإنسانية ابتداء . ورغم هذه المساواة يظل الاختلاف موجوداً . وتتباين عناصر الطين الذي صنع منه المرء ..

ومن ثم فليس غريباً أن يخضع الإنسان ذاته ، كما تخضع الأرض والكائنات . لهذه التقلبات والتغيرات .

يتغير الإنسان إذن ويتقلب بين المشاعر المختلفة والأحاسيس المبهمة . تتعاقب عليه دورات من الفرح ودورات من الحزن ، كما يتعاقب الشتاء والصيف على الأرض .

وقد لاحظ بعض العلماء أن هناك أوقاتاً في السنة يصل فيها نشاط الإنسان إلى ذروته ، كما أن هناك أوقاتاً يصل فيها نشاطه إلى الحضيض . واستنتجوا من ذلك أن هناك دورات تشبه دورات الفصول الطبيعية .

ولاحظ بعض العلماء أنه في اليوم الواحد تختلف قدرة الإنسان على التركيز والنشاط ، مما أوحى إليهم بأن هناك دورة يومية إلى جوار الدورات العامة .

ولاحظوا ان المرأة تكون أميل إلى العصبية والتوتر في فترة الدورة الشهرية ..

ونصل إلى هدفنا بعد هذه المقدمة :

لاحظت أن معظم المشاكل الزوجية ، أو مشاكل الحياة الإنسانية عموماً ، تكمن في إغفالنا لفكرة الفصول الإنسانية التي تتعاقب على الإنسان ، وإهدار فكرة الدورات المتلاحقة التي تحمل الحزن مرة أو الفرح مرة أخرى ..

أحياناً يكون الإنسان في حال شتائي .. وتكون العواصف محتدمة داخله ، والبروق تبرق والرعد يرعد والصواعق تعمل عملها ..

ثم تجيء الزوجة أو يجيء الزوج . ويقتحم هذا المجال الشتائى العاصف ، ويبدأ النقاش بكلمة أو عبارة تبدو مثل عاصفة خارجية تلتقي بالعاصفة الداخلية .

وتنهار المناقشة إلى شجار . ويحتدم الشجار إلى خصومة .. وتسمع عادة في هذه الأحوال قول أحد الطرفين أو قول الطرفين بعد هدوء المعركة .

ـ لم يكن ما قيل يستدعي كل ما وقع من تداع للأحداث ..

وهذا صحيح .. لم يكن ما قيل هو المهم ..

كان الأهم منه ، متى قيل .. وفي أي ظروف داخلية عاصفة قيل فيها .

هناك إذن حالات للإنسان أو دورات تتعاقب عليه .. وهي دورات يحسن بنا أن نبتعد عنها .. وأن نقرأ فيها هذه الإشارة الخفية :

ـ خطر .. ممنوع الاقتراب الآن !

.. تماماً مثل قلب الأم

كانت أمي ـ رحمها الله تعالى ـ تشير دائماً في حديثها معي إلى فكرة تقول : إنني لن أعرف أبداً حقيقة الإحساس الذي يجيش به قلب الأم !

كنت أقول لها : ولكنني أب ! !

وكانت تشيح بوجهها وهي تقول : لن تفهم معنى الأمومة لأنك أب ... هناك فرق بين الأب والأم !

وكنت أحاول أن أمزح معها وأفهمها بأنني أب وأم لمجموعة من القطط والكلاب والعصافير .. وشجرة ياسمين تقع أمام بيتنا ..

وكانت تشيح بوجهها وهي تقول :

ـ لن تفهم ...

ثم مرت الأيام ، وماتت أمي ..

وأدركت من غيابها معنى واحداً من معاني الأمومة .

اعترف بأنني فهمت بعد أن رحلت ـ هذا المعنى .

لقد غاب بغيابها شيء معنوي لا أعرف كيف أفسره أو أضعه في جملة أو أعبر عنه بالكلمات ..

كنت أضيق أحياناً بالحياة ، أو أضيق بمشكلة تعترضني فيها ، وأحس ببؤس وحيرة وعدم قدرة على التصرف ..

عندئذ أقرر أن أزور أمي !

كنت أطوي العزم على أن أحدثها بما في نفسي .

ثم أذهب إليها وأجلس صامتاً .

تسألني هي : ماذا تريد أن تأكل ؟

وأجيب : إنني قد أكلت ..

وتعاود إلحاحها فأعاود الرفض . ثم نجلس صامتين ، أو نشهد لتلفزيون ، أو تحدثني هي عن آخر أخبار العائلة وآخر أخبارها .

وأسمع دون تعليق كعادتي معها حتى تنتهي ..

وفجأة .. تقطع أمي حديثها لتسأل :

● مالك ؟

- لا شيء !

● هناك شيء .. أنت مشغول بشيء .. أنت حزين فلماذا ؟

وأنكر أن هناك أي شيء ، وأبذل جهداً جباراً لأخرجها عن الموضوع قبل أن تلح عليّ في معرفة تفاصيله ...

ثم تنتهي الليلة وأنصرف .

لم أكن أحدث أمي عادة بما يشغلني من مشاكل .

أحس - كرجل شرقي - أنه ليس من المروءة أن نشغل النساء بمشاكلنا الخاصة . رغم أنني كنت أنصرف دون أن أقول لها شيئاً أو أسألها رأيها .

فقد كان مجرد الجلوس معها ورؤيتها كافيين لميلاد إحساس من السلام النفسي داخلي .

مجرد وجودها كان يوحي بالطمأنينة والسلام ..

كنت أقول : لتنقلب الدنيا رأساً على عقب .. مهما حدث فسوف

يبقى لي في نهاية الأمر هذه الجلسة مع أمي .. وهي في حد ذاتها سبيل إلى الراحة ، وعزاء قلبي بغير كلمات !

ثم إنني فكرت بعد موتها في قلب الأم ...

أليس مدهشاً أن مجرد الاقتراب من هذا القلب دون كلام أو شكوى أو دخول في حوار .. كان كافياً في حد ذاته لإحداث تأثير المواساة ..

رغم ذلك لا أظن أني أزعم أنني قد فهمت حقيقة الأحاسيس التي يجيش بها قلب الأم .. ولا أظن أنني قد حللت طلسم الأمومة ، أو عثرت على سر الحنان الخاص الذي يميز قلب الأم عن بقية القلوب القريبة والبعيدة .

لست أنكر ـ كأب ـ ما لقلب الأب من حنان . ولست أنكر أن الأبوة تعتلي عرش التوجيه والقيادة .

لكنني أؤكد أن العطاء الحقيقي يكاد يكون وقفاً على الأمومة ..

كيف يعرف الرجال سر الأمومة ، وهم رياح تنطلق من مكان إلى مكان ، ترتحل دائماً ولا تعرف الاستقرار ، ثم تلقي بذورها في الأرض وتعاود الرحيل ؟

بينما النساء أرض حقيقية تتعهد البذور ، فتكبر الأشجار وتثمر ، ويمتد الظل ويتسع ، ويحجب لهيب الشمس ويعين على الحياة ..

وللرياح الصوت الأعلى وهي تزمجر اثناء مرورها ...

أما الأرض فتحنو على الأشجار وتنبتها دون صوت .

تماماً مثل قلب الأم ..

خطبة إلى الأبد !

رن الهاتف وكان صوته على الخط الآخر .

قال : أريد أن أراك لأمر هام ! !

حددت له موعداً وأنا أحس بالدهشة ... لم يكن صوته هو هذا الصوت المحايد البارد الذي عرفناه دائماً ، كان فيه قلق خفي يوشك أن يعبر عن أزمة داخلية عنيفة .

وانتظرت حتى جاء ...

دخل كالعاصفة وصافحني ، فاكتشفت أن يده مثلجة وترتعش ... أدهشني حاله .

سألته : هل أنت مريض ؟

قال : شيء يشبه ذلك ...

قلت له : لماذا يبدو عليك الشحوب ؟

قال : إني أتعذب ...

قلت : لماذا .. كفى الله الشر ؟ .

قال : إني أتعذب وهي لا تحس بشيء ...

قلت : من هي التي لا تحس بشيء ؟

قال : خطيبتي .

قلت : ربما كانت تحس ولكنها تخفي احساسها .. لعل هذا من دلال النساء أو كيدهن ؟

قال : لو كانت صخور جبال الهمالايا تحس بي ، لأحست هي بي ...

عدت إلى الضحك ، فقال بنبرة لوم : ـ هل تضحك من هذه البلية ؟

قلت : شر البلية ما يضحك ...

عاد يقول ويده ترتعش : اتصلتِ بها فلم أجدها في مكتبها ... واتصلت بها بعد ساعة وسألتها : لماذا لم تكوني في مكتبك ؟ قالت : أنا دائماً لست في مكتبي ... سألتها : لماذا لم تتصلي بي حين علمت بأنني سألت عنك ؟

قالت : نسيت رقم هاتفك . تصور ! ! إنها نسيت رقم هاتفي وأنا أذكر لون الفستان الذي كانت ترتديه منذ سبع سنوات ؟

قلت : هل تحبها منذ سبع سنوات ؟

قال : نعم .

قلت: متى عرفتها ؟

قال : منذ عشر سنوات

قلت : متى تمت خطبتك لها ؟

قال : منذ ست سنوات .

سألته : هل هي إنسان من دم ولحم أم جماد ؟

قال : ما هذا السؤال ؟

فكرت قليلاً ثم قلت له :

أعتقد أن صبرها قد نفد ...

قال : لا أفهم ما تعنيه !

قلت لـه : لقـد عـرفتها منذ عشر سنـوات ... أحببتها منذ سبع سنوات ... وخطبتها منذ ست سنوات . هل تعرف عدد هذه السنوات ؟

قال : عشر سنوات .

قلت له : هذا بحسابك أنت .. أما بحسابها هي فسوف تجمع عشر سنوات على سبع سنوات فوق ست سنوات ... وهذا يعني ٢٣ سنة . إنها تعرفك بحسابها منذ ٢٣سنة ... و هذه فترة طويلة تكفي لحمل الزهق إليها والملل .

سكت صاحبنا وفكر قليلاً ثم سأل :

ـ هل يفسر هذا تصرفاتها معي في الفترة الأخيرة؟

سألت : منذ متى أحسست تغيراً في تصرفاتها ؟

قال : منذ ثلاثة أشهر !

قلت : ولم تفهم أنت رغم هذه الإشارة الواضحة ... اعتقد أنها صبرت بما فيه الكفاية ، ومن حقها اليوم أن تتمرد .

قال : لقد فهمت رسالتها ... استأذنك ! !

قالها ، وانصرف مسرعاً ...

جلست وحدي أفكر : إن اطالة فترة الخطبة لسنوات أمر يدمر الغرض الأصلي من فترة الخطبة .

الأصل في هذه الفترة أنها فترة.اختبار ، كما أنها فترة تعارف هدفها التمهيد لتكوين أسرة ... وحين تطول فترة التعارف والتمهيد يفسد الزواج نفسه . لأن امتداد الفترة يتيح لوجهات النظر المختلفة أن تظهر ، وظهورها في اطار الخطبة أخطر من ظهورها في حضن الزواج . في الزواج يمكن حل المشاكل لأن هناك أسرة ... أما في

الخطبة فما أسهل التراجع عن السباحة ونحن لم نزل على الشاطئ ! !

وقد أدرك العرب القدماء بوحي من غريزتهم وفطرتهم هذه الفكرة ، فلم نسمع أنه كانت هناك هذه الفترات الطويلة للخطبة ...

كان الزواج يتم في أيام ...

إن فكرة الخطبة إلى الأبد فكرة مضحكة حقًّا .

الزوج اللامبالي السعيد

كانت عندي قطة سميتها ليلى تيمناً بليلى العامرية . والقطة كانت جميلة ولكنها لا تعرف أنها جميلة . وهكذا أضيف جمال اللاوعي إلى الجمال عندها ... فصارت جميلة مرتين .

ولم أكن أعرف وليلى قطيطة صغيرة ، أنها تنطوي داخل جلدها على أم من طراز رفيع .

لقد كبرت وصارت قطة مكتملة الأنوثة . وجاء موعد زفافها . وقد كنت بوصفي أباها أو كفيلها حاضراً لحظة الاختيار والزواج ...

اختارت ليلى قطًّا أصفر فيه بقع بيضاء ... كان قطًّا كادحاً يقف على السلم !

وبوصفه من القطط الكادحة البائسة لم يمانع في الزواج من قطة بيت طيب لا يخلو من اللحم والسمك ...

تم الزواج بعد فترة خطبة قصيرة لم تزد على يومين . وأولمت للقطة وليمة من الكبدة والسمك .

وصارت ليلى عروساً . لم يكن زوجها القط يعجبني ... كان بيننا ما يكون من تنافس بين الأب والزوج عادة . ولما كان القط يعتبرني

« حماه » ، فقد كان يشيح بوجهه عني كلما رآني ، ولم يكن يبدو وديًّا إلا ساعة الغداء أو العشاء .

كان يتحول من قلة الاكتراث إلى الود المصطنع فيتمسح في قدمي ويرفع ذيله بالتحية وان كان قاع عينيه يعكس شعوراً بأن ما في القلب في القلب .

ما علينا ... تزوجت ليلى وصارت أمًّا بعد شهور . ثم ولدت لنا مجموعة من القطيطات الصغيرة التي ما زالت مغمضة العينين ..

وشاهدت معنى من معاني الأمومة في عالم الحيوان ..

تحولت القطة من قطة ... إلى أم .

وفرق هائل بين المعنيين . في البدء كانت القطة تعيش لنفسها ... لذاتها ولطعامها وشرابها ولعبها وراحتها ونومها هي .

فلما صارت أمًّا تغير هذا كله فجأة .

صار كل شيء مسخراً لخدمة الأطفال الجدد .

صارت الحركة والسكون مشروطين بخدمة هدف جديد هو الأطفال .

كانت القطة قبل أن تصبح أمًّا تشبه مخلوقاً حرًّا ... ثم سجنتها الأمومة وراء قضبان الحنان والرغبة في الخدمة .

طوال ساعات النهار والليل كانت ترضع أطفالها ..

كانوا ستًّا من القطيطات ...

ولدت وعيونها مغمضة ، ورغم أنها لا ترى بعيونها فقد كانت تتجه نحو اثداء الأم كأن يداً خفية توجهها إلى مصدر الغذاء ..

كانت لا ترى ... وفي الوقت نفسه ترى بعيون أخرى هي عيون القلب ...

وكانت القطة الأم تنام على جنبها وتستسلم لهذا النهم الذي لا يشبع ... وهذه الأفواه التي لا تكف عن الرضاعة .

لم تعد القطة الأم تأخذ حظها من اللعب أو الراحة أو النوم .

صارت أوقات اللعب والراحة والنوم مخصصة لخدمة الأطفال الصغار ...

لم تكن القطة تنسى أن تأخذ حظها من الطعام .

انفتحت شهيتها للأكل وكأنها تدرك مثل أي مخلوق عاقل مميز انها ترضع ستًّا ، وعليها بالتالى أن تأكل طعام ست أو أكثر .

وتضعضعت ميزانيتي وكنت أيامها في شبابي، ولكني اجتهدت في العمل واكتشفت أن القطة الأم ليست هي وحدها المسخرة لخدمة الأطفال ، وإنما صرت مسخراً معها .

كانت القطة تجري على ستة عيال كما يقولون ... وكنت أجري على قطة تجري على ستة عيال ! !

ورزقنا الله فحملت يد الرحمة الإلهية العبء عنا .

وكبر الأطفال ... وكانت الأم تحميهم وتنظفهم بلسانها ، واحداً بعد الآخر . لحظة بعد لحظة ، وساعة بعد ساعة ، ويوماً بعد يوم ... كانت تشقى من أجلهم حقًّا .

وأصاب القطة نحول ، وهزل جسدها بعد أن كانت ممتلئة .

ورغم ذلك استمرت في اداء وظيفتها كأنها تؤدي عملاً مقدساً .

وطوال هذا الوقت ... كان الأستاذ الزوج يقف على السلالم .

يحضر ساعة الغداء أو العشاء ويأكل جيداً ويمسح شواربه بيده ثم يلقي نظرة على عياله ويمضي عنهم لحياته وملذاته ...

ولم يفقد القط هذا الزوج اللامبالي السعيد هدوء باله بعد الإنجاب وزادت لا مبالاته حتى أصبح يرمق أطفاله وهم يكبرون بدهشة ..

ثم تقولون لي الأمومة أم الأبوة ؟

ست نظريات في تربية الأطفال

« قبل أن أتزوج ، كان عندي ست نظريات في تربية الأطفال ، أما الآن فعندي ستة أطفال وليس لدى أية نظرية لتربيتهم » .

جان جاك روسو

هذه كلمة منسوبة لجان جاك روسو . ونحن لا نعرف هل قالها الرجل حقيقة أم أطلقها عليه أعداؤه .

لكن الكلمة مضحكة وحقيقية .

ومعظم الأزواج يحسون هذه الكلمة ...

ويوشك معنى الجملة أن يكون كالمثل العامي المصري الذي يقول « من غمس يده في الماء ليس كمن غمس يده في النار» . ويريد معنى الجملة أن يقول : إن النظريات شيء والواقع شيء آخر ... وأن الدراسة شيء والحياة شيء آخر ...

وهناك معنى آخر للجملة .

ان معناها أن وجود ستة أطفال يلغي وجود ست نظريات في تربية الأطفال ... أو يحتاج إلى أكثر من ست نظريات .

وليس كالحياة معلم .

ما هي أفضل نظرية في تربية الأطمال ؟

إن هناك عشرات النظريات والأصول . وهناك تجارب دول سبقتنا ... وهناك تجارب قديمة ومعاصرة ... وهناك مناهج متعددة !

إن العالم الاشتراكي يهتم بأدب الأطفال وصحتهم وتعليمهم وثقافتهم .

أما العالم الغربي الرأسمالي فيضع كل منجزات العصر من اختراعات في خدمة الأطفال .

ورغم ذلك ينشأ هؤلاء الأطفال فيساهمون بقلة سعادتهم في عالم غير سعيد .

لماذا ؟

هذا هو السؤال .

ما هو الشيء الناقص الذي يجعل كل النظريات في تربية الأطفال تنتهي إلى عدم الجدوى ؟

أقول لكم لماذا .

إن معظم نظريات تربية الأطفال تنظر إليهم كأجساد وعقول ونفوس ... لكنها تغفل الروح الداخلي .

وهذا الروح لا يصح ولا تصلح له من النظريات سوى نظرية الإيمان ...

إن اغفال عنصر الإيمان وأثره في حياة الأطفال يخلق عالماً غير سعيد .

شاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة تعد طفلها بشيء ليسكت عن بكائه ، وأدرك الرسول أنها تضحك عليه ولن تمنحه ما وعدته ! وأفهمها الرسول أن عليها أن تفي بوعدها وإلا كانت كاذبة .

لم يقل الرسول أكثر من هذا ومضى ...

ولقد مر الآن خمسة عشر قرناً على هذه الجملة القصيرة .

ولكن تعالوا نتأمل معناها ...

لقد نهى الرسول الكريم عن الكذب على الأطفال ، حتى لو كان هذا كذباً أبيض لا ضرر فيه ...

هذا يعني أن الصدق هو النظرية التي تلعب الدور الرئيسي في تربية الأطفال ...

ولو تربى الطفل في جو من الصدق الجميل ، لو وقع هذا لخرج الطفل إلى الحياة انساناً صادقاً ...

والصدق عملة نادرة ... ولكن الحياة بغيرها تأسن وتركد وتنتهي !

الإيمان والصدق .

هذه هي النظرية الإلهية في تربية الأطفال ، والمنهج القرآني يعالج بروح الإسلام كل شيء ...

ولا يعني هذا أن نهدر أية نظريات حديثة أو معاصرة في تربية الأطفال ...

لنجرب كل ما نريد تجربته ...

لا حرج ولا بأس بشرط وضع الأساس أولاً ...

أساس الإيمان والصدق .

كيف يختار الإنسان شريك عمره ؟

كيف يختار المرء زوجه ؟

وكيف تختار المرأة زوجها ؟

إن الزواج شركة استثمار ... وهو مثل شركات الاستثمار يحتاج إلى رأس مال في البداية .

ورأس المال الحقيقي في الزواج هو الاختيار ...

والاختيار صعب عادة ، لأنه تمييز بين بدائل مختلفة ، وترجيح لبعضها على البعض الآخر ، واستقرار نهائي على واحد منها ..

والاستقرار مطلوب في الشركات كما أنه مطلوب في الزواج .

وحسن استغلال رأس المال مطلوب في الشركات كما أنه مطلوب في الزواج ، رغم اختلاف فكرة رأس المال في الشركة عنه في الزواج .

وإذا كان هدف الشركات الاستثمارية هو الربح ، فإن هدف الزواج أعلى من ذلك كثيراً .

إن الهدف هو بناء أسرة وإنجاب أطفال .

وهذا يعني استمرار الحياة ...

كيف يختار المرء في الزواج .

إن أكثر الناس يتجهون باختيارهم نحو الجمال ، والجمال

مؤقت ... وأحياناً يكون غلافاً خارجيًّا لقبح داخلي . كما أن أكثر الناس يتجهون إلى الثراء والمال ، والمال ظل زائل ، والمثل العامي المصري يقول « يا واخد القرد على كتر ماله ... يروح المال ويظل القرد على حاله » .

كثير من الناس يتجهون نحو الجاه . والجاه كما نعرف امتحان محدد المدة . والحياة في حركتها لا تترك شيئاً على حاله سواء كان الشيء مالاً أو جمالاً أو جاهاً . والدنيا لا تدوم على حال ... والمثل العربي يقول « لو دامت لغيرك ما آلت إليك » .

وهناك من يتجه باختياره لمعايير البراجماتية أو المنفعة . فيحسب الحسابات ويجري المعادلات ويفكر ويطرح ويضرب ويقسم ويجمع ويحسب ...

وهذا كله ليس هو المعيار الصحيح للاختيار في شركة الحياة الزوجية .

إن الغراء الذي يلصق الزوجين كما يحدثنا القرآن الكريم هو المودة والرحمة . « خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة » . أي أن هدف الزواج هو السكن ... وما يجعل السكن سكناً هو المودة والرحمة .

كيف نختار إذن في الزواج ؟

لقد تحدثنا عن اختيارات كثيرة ، كالجمال والثراء والجاه والنفوذ والمنفعة ...

لكننا لم نتحدث عن اختيار وضع منهجه الإسلام .

إن للإسلام منهجاً في كل شيء .

ابتداء من علاقة الرجل بنفسه وزوجه ومجتمعه وكونه وربه ... وانتهاء بعلاقة البشر بغيرهم من البشر والكائنات !

والمنهج القرآني يقوم على تفضيل الإنسان المؤمن !

ويبرز هنا سؤال :

كيف نكشف عن إيمان إنسان ما ؟ .

إن الإيمان مسألة باطنية ... مسألة جوانية ... مسألة لا يعرفها سوى الله عز وجل .

هذا كله صحيح ... لكن هناك أسئلة لو عرفنا اجاباتها لكشفنا عن أغصان الإيمان وشجرته .

إن الإيمان ـ مثلما أنه وعي جواني ـ هو أيضاً سلوك في الحياة .

كيف يعامل الإنسان أمه وأباه ؟

إن معرفة الجواب تكشف عن غصن من الإيمان . إن البر بالوالدين إيمان وجحودهما كفران ...

كيف يعامل الإنسان بقية الناس ؟ كيف يعامل أقرانه وزملاءه ؟ وكيف يعامل من هم أقل منه اجتماعيًّا ؟ وكيف يعامل من هم أعلى منه اجتماعيًّا ؟ هل هو متواضع أو مغرور؟ هل هو رحيم أم قاس ؟

كيف ينظر إلى المال ؟ هل يراه وسيلة في الحياة أو هدفاً فيها ؟

وهل يحترم المال أكثر مما يحترم انسانية الإنسان أم لا ؟ هل هو كريم أم بخيل ؟

إن البخل يعني عدم الثقة في عطاء الخالق ... والكرم ثقة في عطاء الخالق ...

ما هي علاقة الإنسان بالأفكار ، بالآخرين ، بالحيوان ، بالنبات ؟

إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقوم في منتصف الليلة الشاتية ليفتح الباب لهرة تلتمس ملجأ من البرد ... وكان يطعم الكلاب ويمسح عرق جواده بكم قميصه ... وليس بعد هذه الرحمة رحمة .

أمامنا عشرات الأسئلة التي نعرف بها حظ الإنسان من الإيمان ... والسعيد في حياته من يختار بمنهج القرآن لا بمنهج السلطان .

السيارات ... والنساء

السيارات كالنساء ، أنواع مختلفة وطبائع متباينة وردود فعل معروفة وغير متوقعة .

في السيارات كما في النساء ستعثر على ابنة الأصول التي تصبر على فقرك وإملاقك ... وفيهن المدللة التي تنهار إذا أهملت شأناً من شؤونها التافهة .

والنساء يعرفن الموضة ، ويتحاورن معها ، ويغيرن من شكل ملابسهن ، كل عام ... والسيارات كذلك تعرف الموضة وتتجاوب مع خطوطها ويتغير شكلها كل عام .

وقد لاحظت أن السيارات القديمة كانت تشبه النساء القدامى ... أيام جداتنا وأمهاتنا .

إن السيارة القديمة كانت تحتمل كل شيء وتقاسي كل يوم ، وتريد أن تعيش ... وكذلك الجدات والأمهات .

أما سيارات اليوم فشكل رائع ، مع قوة احتمال ضعيفة ... تماماً مثل نساء هذا العصر .

إنهن أجمل من جداتهن ... ولكنهن لا يحتملن جزءاً مما كانت تحتمله الجدات .

وبين السيارات والنساء وجوه شبه ووجوه اختلاف ...

هناك سيارات تتميز بالضخامة والخطوط المنسابة والفخامة ، وفيها ما يعمل بشكل أوتوماتيكي ... أي أنها توفر الراحة والإحساس بالجمال إلى جوار السرعة وأداء الوظيفة .

عيب هـذه السيارات انها رغم جمالها لا تحتمـل طـويلاً ...

انها شكل فخم ولكنها يمكن أن تخذلك! ! كأن الشكل إذن ليس هو المعيار ...

أليس هذا شأن النساء أيضاً ...

إن الجمال الداخلي للمرأة أثقل في الميزان من شكلها الخارجي ..

إن جمال الملامح والقسمات وإهمال الخدمة والوظيفة يجعلان الجمال قذى في العين وشوكة من أشواك الوردة .

وقس على ذلك ...

وهناك سيارات تشبه السيارة لوحة أنيقة لرسام فرنسي . وتعمل هذه السيارات بشكل معقد .. وهي لا تصلح للحياة الا في بلدها . ولا تصلح للسير الا في جو بلادها النظيف ... سيارات لا تحتمل حر الصحراء ولا خشونة الأودية .

عيب هذه السيارات انها لا تصلح للحياة الا في ظروف من الراحة المترفة .

أليس هذا شأن بعض النساء أيضاً ؟

تكون المرأة جميلة الصورة دقيقة الملامح ولكنها لا تصلح للحياة الا في بيئتها ... لا تستطيع أن تعيش في ظروف الحياة الخشنة كحياة الصحاري والجبال .

وإذن ... فإن الجمال أيضاً ليس وثيق الصلة بالقدرة على الحياة !

قد يتوفر الجمال ولكنه لا يستطيع أن يرحل عن مكانه ... وهذا جمال مقيد بالمكان .

ونعود إلى الشكل ... والوظيفة .

إن شكل المرأة مهم مثل شكل السيارة ... ولكن الوظيفة أهم من الشكل .

وهذا قانون يحكم السيارات كما يحكم النساء .

ما هي وظيفة السيارة ؟

أن تنقلك من مكان إلى مكان آخر ! !

ما هي وظيفة المرأة ؟

أن تنقلك من زمان إلى زمان آخر !

زمان داخلي هو زمن السعادة المفقودة ...

لو نجحت المرأة في هذا كانت امرأة . ولو نجحت سيارة في نقلك من مكان إلى مكان لكانت سيارة .

وقديماً قال حكيم أحمق : « في الشباب يفضل الرجل السيارة الصغيرة ، ولكنه يفضل المرأة الكبيرة . وفي شيخوخة الرجل يفضل السيارة الكبيرة ، ويفضل المرأة الصغيرة » .

قال الحكيم الأحمق كلمته ومضى في حال سبيله .

تحطم قلبى لماذا أفعل ؟

على الإنسان أن يعالج نفسه من صدمة الحب وجراح القلب إذا صدم أو جرح ، وهذه هي الخطوة الأولى في الشفاء .

أما الخطوة الثانية فينبغي أن تجيء من المجتمع .

حين ينجرح قلب الإنسان بعد قصة حب فاشل أو تعس .. يحتاج هذا الجريح إلى رعاية وفهم غير عاديين من الوسط المحيط به ويحتاج إلى علاج شأنه شأن الجريح وربما احتاج إلى ما هو أكثر ..

ذلك أن الجراح المعنوية قد تكون أقسى من الجراح المادية وأكثر استعصاء على الشفاء .

وبغير هذا العلاج يمكن للإنسان أن يسقط في آبار الحزن وأمراض الشفقة على الذات .

المشكلة أن مجتمعنا العربي يمارس ثنائية مدهشة في موضوع الحب . إن الأدب العربي ملىء بقصص المحبين وبطولاتهم في مجال الجوى . والشعر العربي ينقل إلينا أحداث المحبين كأننا نعيش معهم ونرصد أفكارهم وحركاتهم .

ومن بين القبائل العربية القديمة اشتهرت قبيلة « بني عذرة » بتخريج عشاق أحبوا وعفوا وماتوا على الحب والعفة .

بل إن الحب العذري يدين بوجوده لهذه القبيلة .. وكل ابداعات الوجدان العربي في الشعر تدين في معظمها لهذه القبيلة ! !

إذن نحن ننحدر من أسلاف أكبروا الحب العذري وعبروا عنه في فنونهم وآدابهم أعظم تعبير ..

وما زال الحب يحتل الجزء الأعظم من أغانينا وتمثيلياتنا ومسرحنا وفنوننا وآدابنا .

ورغم ذلك ، فنحن في حقيقة الأمر لا نعطي للحب على مستوى الحياة اليومية ما يستحقه من تقدير ..

وآية ذلك أسلوب معاملتنا لأصحاب الجراح الناتجة عن الحب . نحن نسخر منهم ونعتبرهم آثمين أو مخطئين أو لا نرعاهم كما ينبغي . هذه الثنائية التي تواجه الحب بالسخرية ، وتتحدث عنه باحترام ، هي نفسها الثنائية العربية في كثير من الأمور .. أحياناً نتحدث عن شيء فيبدو لمن يسمعنا أننا نحترم هذا الشيء ، ثم تأتي الممارسة الفعلية فإذا بنا نتعامل باستهانة تخلو من أي اهتمام .

وهذا هو المسؤول عن تأخير شفاء أبنائنا إذا أحبوا وتحطمت قصص حبهم ، وأول دواء يجب تقديمه لمن أحب وتحطم حبه هو الفهم ..

هذا هو الدواء الأول .

أن نفهم مشاعره ونقترب منها لا بالشفقة وإنما بالفهم ، لا بإشفاق عليه وإنما بالوعي ..

إن مجرد الاستماع إلى إنسان خرج من معركة جريحاً يشبه تغطية الجراح بالمراهم الشافية .

بعد الفهم يجيء الدواء الثاني :

أن نحاول نقل هذا الفهم إلى الجريح الذي نواجهه ..

أن نحاول اقناعه بأن يخرج من نطاق الرثاء للذات إلى مجال الوعي بالذات .

وهناك فرق بين رثاء الإنسان لنفسه ووعيه بنفسه . أيضاً يجب أن نحتضن هؤلاء الجرحى في معارك الحب ونزرع في وعيهم أن ما حدث تجربة تقويهم .. وقديماً قال الفيلسوف : «كل ما لا يقتلني يقويني» .

من المهم أيضاً أن نتعاون معهم على اجتياز مفازة الأحزان وصعود جبال الألم بقدم ثابتة ..

ولننظر في الآثار الفنية الباقية على امتداد التاريخ . سواء كانت شعراً أو قصصاً أو مسرحيات ..

إن موضوعها الرئيسي حب تحطم أو حب لم يكتمل أو حب وقفت العقبات في طريقه .

ولنسأل أنفسنا : هل كان قيس يقول ما قاله في ليلى لو انتهت قصة حبهما بالزواج ؟

إن درب الألم الإنساني هو نفسه الطريق للعبقرية .. والقوقعة لا تضع اللؤلؤ إلا حين يؤلم قلبها جسم غريب .. ولولا الألم ما عرفنا اللؤلؤ .

مصدر .. مصادر الرحمة

الأمومة مصدر من مصادر الرحمة في الكون ..

هذه حقيقة لا يختلف عليها أحد .. ويكفي أن نتأمل الأمومة في الإنسان أو الحيوان لنضع يدنا على هذه الحقيقة ..

ان قطة ما قد تكون معروفة بالشراسة ، قد تكون مشهورة بأنها تبرز مخالبها إذا اقترب من طعامها أحد ..

نفس هذه القطة تتغير تماماً حين تصير أمًّا ..

كنت أربي قطة في بيتي ، ولاحظت أنها تمتاز بالطفاسة والدناوة . كانت لا تشبع مهما أكلت . وكانت تمارس وهي تأكل طقوساً عجيبة وتصدر أصواتاً تهديدية بفمها .. والويل كل الويل لمن يقترب منها وهي تأكل .. !

إنها تقوس ظهرها وتنفش ذيلها وتبرز أنيابها وتكشر عن مخالبها وتتهيأ لخوض معركة حياة أو موت ..

وكنت أجرب أن اقترب منها وهي تأكل فكانت تزوم لي كأنما تقول :

ــ نحن أصدقاء ولكن إلى حد عدم الاقتراب مني وأنا آكل ..

ومرت الأيام وفوجئت بأن القطة حامل ، ولاحظت أن شراستها تفسح الطريق لحنان غريب ، صارت تتمسح في أهل البيت كلهم كأنما لتكسب أنصاراً لأولادها قبل ولادتهم وكانت تعامل بالرفق من كانت تكشر في وجهه قبل ذلك . لكنها ظلت على عاداتها السيئة في الأكل ، ظلت تزوم إذا أكلت وظل الاقتراب منها وهي تأكل مغامرة غير مأمونة العواقب ..

ثم ولدت هذه القطة ..

صارت أمًّا أخيراً ..

وتغيرت شخصيتها تغيراً ملحوظاً .. كانت ترضع أبناءها معظم الوقت ، وكانت تأكل بشكل طبيعي ، فلا تزم ولا تتكالب على الأكل ، صحيح أن شهيتها انفتحت بعد الولادة ، فقد كانت ترضع خمس قطيطات صغيرات ثم كبر الأولاد وفطمتهم وبدأوا يأكلون معها ..

ولاحظت أمراً عجباً ..

كان أولادها يأكلون طعامها وهي تنظر إليهم بسعادة راضية ، وتذكرت صورتها قبل أن تلد .. لشد ما تغيرت الصورة ..

أين ذهبت شراستها القديمة ؟ كيف ضاعت وحشيتها ؟ أين طفاستها ؟

لقد ضاع هذا كله .. غرق في حنان الأمومة ..

انتهى الأمر وصارت القطة أمًّا ، فضلت أولادها عليها في أمر حيوي يتصل بالحياة وهو الطعام وأدهشتني هذه المعجزة ، معجزة الأمومة التي تضحي بنفسها من أجل أولادها . رحت أفكر :

إذا كانت الأمومة هي مصدر الرحمة والحنو في الأرض ، فما هو المصدر الأصلي الذي نبعت منه الأمومة ؟

بعبارة أخرى : من الذي علم القطة الأم هذا الحنو ؟

من الذي وضع في قلبها كل هذه الرحمة ؟

ورد في الحديث النبوي الشريف أن الله تعالى خلق الرحمة مائة جزء ، وجعل في الأرض جزءاً واحداً ، فمن هذا الجزء تتراحم الخلائق حتى لترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه .

سبحان الله وتبارك وتعالى .. أي رحمة تكون رحمته إذا كان حنان الأم ورحمتها جزءاً يسيراً من مائة جزء خلقه الرحمن الرحيم

صور رسول الله صلى الله عليه وسلم عظمة الرحمة الإلهية حين أشار يوماً إلى أم ترضع طفلها وسأل صحابته :

ـ هل ترون هذه الأم تطرح ولدها في النار ؟

أجاب الصحابة بالنفي ..

قال صلى الله عليه وسلم : فإن الله تعالى أرحم بعباده من هذه الأم بابنها .

سبحانه مصدر الرحمة .. سبحانه مصدر مصادر الرحمة .

سبحانه وتعالى ..

قال : لم تعد زوجتي تفهمني

قال : لم تعد زوجتي تفهمني !

قلت له : أنا قادم إليك في مهمة رسمية تشبه مهمة المبعوث الدولي للأمم المتحدة !

ضحك طويلاً وقال : ماذا تشرب ؟

قلت : فنجاناً من القهوة العربية .

قال : أنا معك في حبك لهذه القهوة ، لم أكن استسيغها في البداية ، ولكني تعلمت منك .. اعترف بأنني أحب هذه القهوة ..

قلت له : بمناسبة الحب .. زوجتك تعتقد أنك لم تعد تحبها .

ضحك طويلاً ثم قال : بلغني نبأ زيارتك لنا ، وحمدت الله على أنك قابلتها وتحدثت معها ثم فوجئت أنها لم تزل غاضبة .. هل فشلت في اقناعها ؟

قلت له : اعترف بأنني فشلت في اقناعها .

قال ـ وهو يضحك ـ : لا أحد أفضل من أحد . لقد فشلت أنا الآخر ، ماذا جرى للنساء ؟ !

قلت له : مثلك أنا لا أدري ..

قال : إليك الآن فنجان القهوة .. أليست رائعة ؟

سألته : من تقصد ؟

قال : القهوة .

قلت : حسبتك تتحدث عنها ..

قال : أنا الآن من عشاق هذه القهوة ، إنني أحس حين احتسيها بأنني أنحني على مزارع البن في العالم كله واحتضنها وأقبلها !

قلت له : زوجتك تقول إنك لم تعد تحبها .

قال : أنت تعرف أنني أحبها .

قلت : نعم .. أنا أعرف ، ولكنها هي لا تعرف وهذا هو المهم .

قال : إنني أعمل من أجلها ، أحاول النجاح من أجلها ، أحرق أعصابي ووقتي من أجلها .

قلت له : أعرف هذا كله ولكن المشكلة أنك تبتعد عنها خلال نجاحك . أنت مشغول .. أي رجل ناجح ، وزوجتك تحبك وتفخر بك ، ولكنها تحس بأنك تبتعد ، وهي تخشى على حبكما من البعد .

قال : ما أغرب النساء ، إنهن يتزوجن بأحلام الحب ، ثم يتوقعن من الزوج أن يكون ناجحاً ، وأن يكون قيساً في نفس الوقت ، لو كان قيس بن الملوح حيًّا يشتغل مثلاً في تجارة البترول أو الهندسة أو الطب ، هل تعتقد أنه كان يجد وقتاً ليقول كل أشعاره في الحب ؟

ضحكت وقلت له : لا أظن ..

قال : لم تعد زوجتي تفهمني ، انها تريد أن أنجح خارج البيت .. وتريدني إذا عدت إلى البيت أن ألاحظ انها غيرت تسريحتها أو صبغت شعرها بلون آخر .

قلت له : طبعاً أنت لم تلاحظ ؟

قال : لم ألاحظ .. هل تلاحظ أنت مثل هذه الأمور ؟

قلت له .. بصراحة .. لا ألاحظ .

قال · هل تريد فنجاناً آخر من القهوة ؟

قلت له : هات ..

رحنا نتحدث عن السياسة ثم تذكرت أنني جئت في مهمة رسمية ، وعدت أقول له : زوجتك تزعم أنكما لم تعودا تشتركان في شيء ، والحياة الزوجية مشاركة كما تعلم .

قال : نعم . أعلم ذلك .

قلت له : ماذا فعلت بهذا العلم ؟

قال : لا شيء .

قلت له : هذه مشكلة ، لماذا لا تسافران معاً في إجازة ؟ ! سأحضر إليك كتاباً جديداً صدر عن أجمل ما قيل في الحب ، حاول أن تحفظ هذا الكتاب ، وقل لزوجتك ـ في كل يوم من أيام الاجازة ـ صفحة ! من يدري ، لعلها تتأكد من أنك تحبها ؟ !

رحنا نضحك معاً ونتناول الأمر بشكل ساخر . ثم أحسست أن منطق الرجال ظالم حقًّا .. إن الرجل يتصور في معظم الأحيان أن مهمته أن يحضر النقود لأهله ، وهذا جزء من مهام الرجولة ، ولكن التعبير عن المشاعر جزء لا يقل أهمية .

لكن .. ماذا تقول في منطق الرجال ؟ !

كيف يختار الإنسان صديقه ؟

قل لي من هم أصدقاؤك ، أقول لك من أنت ..

كيف يختار الإنسان أصدقاءه ؟

ان اختيار الأصدقاء أمر يتوقف عليه مستقبل الإنسان ، ورب صديق عاقل يدفعك .. ورب صديق جاهل يعوقك ، وقد فتشت في كتابات الكتاب العرب عن وصف للصديق أو اختياره ثم عثرت على نص لعبد الله بن المقفع ، أسماه « الصديق العاقل » .. قال فيه أسباب اختياره :

«كان لي أخ ، هو أعظم الناس في عيني .. وكان رأسي ، عظمه في عيني صغر الدنيا في عينه ، كان خارجاً من سلطان بطنه ، فلا يتشهى ما لا يجد ، ولا يكثر إذا وجد . وكان خارجاً من سلطان لسانه ، فلا يتكلم بما لا يعلم ولا يمارس فيما علم . وكان خارجاً من سلطان الجهالة فلا يتقدم أبداً الا على ثقة بمنفعة .. وكان أكثر دهره ، صامتاً ، فإذا قال بز القائلين . وكان يرى ضعيفاً مستضعفاً ، فإذا جد الجد ، فهو الليث عادياً ، وكان لا يدخل في دعوى ولا يشارك في مراء ولا يدلي بحجة ، حتى يرى قاضياً فهما وشهوداً عدولا . وكان لا يلوم أحداً فيما يكون الغدر في مثله ، حتى يعلم ما عذره .

وكان لا يشكو وجعه إلا عند من يرجو عنده الشفاء . ولا يستشير صاحباً ، إلا أن يرجو منه النصيحة . وكان لا يتبرم ، ولا يتسخط ولا يشتكي ، ولا يتشهى ، ولا ينتقم من العدو ، ولا يغفل عن الصديق ولا يخص نفسه بشيء دون إخوانه من حيلته وقوته واهتمامه .

يحدثنا « عبد الله بن المقفع » فيقول :

عليك بهذه الأخلاق إن أطعتها (تحملتها) ولأن تأخذ القليل خير من ترك الجميع .

قالت لم يعد زوجي يحبني !

قالت ـ وهي تنتحب ـ : لم يعد زوجي يحبني ..

قلت ـ وأنا أحاول التخفيف عنها ـ : لا تقولي هذا .. انني اعرف أنه يحبك .

قالت : أبداً .. أنت تقول ما تقوله لكى أهدأ .. إنه لم يعد يحبنى .

سألتها : كيف عرفت أنه لم يعد يحبك .. ! ؟

أجابت : إنه لا يقول لي أبداً إنه يحبني ..

قلت لها : هل تتصورين أن صمت الزوج عن الاعتراف ، يعني أنه لم يعد يحب ؟ ..

قالت : أي شيء يعني إذن ؟ .

قلت : قد يعني أنه مرهق ، أو متعب ، أو مشغول ، أو يعرف أنه يحبك ، ويعرف أنك تعرفين ، ومن ثم فلا داعي لقول ما هو معروف لك وله .

قالت : هذه وجهة نظره كرجل .. أنت تتحدث من وجهة نظره ، أنتم جميعاً كذلك ، تتبنون وجهات نظركم فقط .

قلت لها : أنت قريبتي ، وهو غريب ، ورغم ذلك فأنا أقول لك ما أعتقد أنه صحيح .

قالت : أبداً أنت تجامله لأنه رجل . وتضغط علي لأنني قريبتك .

عبثاً حاولت أن أقول لها إن هناك فرقاً بين الحب والتعبير عنه ولست من المنكرين أن الحب يستلزم التعبير عنه ، لكن من المهم كثيراً أن نفهم أن الحب شيء ومجرد التعبير عنه بالكلام شيء آخر.

قلت لها : سأضرب لك مثالاً لأوضح فكرتي .. أحياناً يكون هناك تعبير عن الحب . بينما حقيقة النفس تخلو من الحب ، ونحن نشاهد في السينما والمسرحيات مواقف تلتهب فيها المشاعر ، مواقف تبكي فيها « جوليت » أو « أوفيليا » أو يبكي فيها « روميو» أو سرانو دي برجراك » ثم ينتهي تصوير المشهد المسرحي أو السينمائي فإذا الممثلة تقول ـ مثلاً ـ : أنا جائعة ، أو .. لن أرتدي هذا الحذاء مرة أخرى فهو يؤلمني ! ..

ما الذي كان يحدث اثناء التصوير إذن ؟

مجرد تمثيل .. مجرد اداء تمثيلي .. دور يبكي فيه المتفرج بدموع حقيقية استجابة للدموع الزائفة التي شاهدها، وهذا من غرائب الحياة والفن .

إن الصدق يولد من الزيف ، وينتج التأثر الحقيقي من الخداع . وما أكثر الذين يملكون مواهب تمثيلية ، ولكنهم لا يشتغلون بالتمثيل . هل تريدين من زوجك أن يعيد على سمعك مشهد الشرفة ، وأن يقول لك نفس الحوار الذي قاله روميو لجولييت ؟

قالت قريبتي : هذا هو منطق زوجي تماماً .. أنت تتحدث مثله ، وهذا المنطق مرفوض .

من الذي قال إنني أريده أن يسرد على مسامعي نص حوار مشهد الشرفة ؟ ! من الذي قال هذا ؟ ! كل ما أريده منه أن يعبر عن حبه

لي بالكلمات ، إن زوجي مغموس تماماً في عمله ، حياته هي عمله ، إنه لم يعد يزور البيت الا ليأكل أو ينام . لم تعد حياتنا محتملة ..

قلت لها : لماذا يعمل زوجك ؟ لماذا يحاول النجاح في عمله . أليس هذا كله في النهاية عائداً إلى أسرته وإليك ؟

قالت : لا يهمني نجاحه ، إن نجاحه قد فقد معناه ، إن نجاحه يبعدني عنه ويبعده عني .. أي حياة هذه الحياة ، لقد خلقنا الله للحياة والحب والأسرة لا العمل وحده .

قلت لها : هذا منطق المرأة ، ولكن منطق الرجل يختلف ، الرجل يعتقد أن نجاحه في عمله دليل على حبه لزوجته ، وانه يعتبر تعبيراً عمليًّا عن حبه لزوجته واهتمامه بها وبأسرته .

قالت : هل يعني هذا النجاح أن ينصرف الزوج عن بيته ويفقد اهتمامه بأسرته وزوجته ! ؟ ما هي قيمة النجاح إذا لم تشترك فيه الزوجة ؟ ما هي قيمة الحياة الزوجية بغير مشاركة ؟ إننا لم نعد نشترك في شيء . لم نعد نتحدث كما كنا نفعل في بداية الزواج ، لم تعد بيننا حياة فكرية أو عقلية أو وجدانية ..

هل هذا هو الزواج المثالي في نظرك كرجل ؟

أن تعمل وتحضر النقود لأسرتك ..

صمتت قريبتي ورحت أفكر في كلماتها ..

قلت لها في نهاية الحديث : سوف أحمل وجهة نظرك إلى زوجك وأناقشه فيها .. ثم أعود إليك بما قاله .

قالت : متى تفعل ذلك ..

قلت : في الأسبوع القادم من « سيدتي » .. يا سيدتي ! ..

تحطم حبي ... فماذا أفعل

ليس بالحب وحده يحيا الإنسان .. ورغم ذلك ، يبدو أحياناً أن الحياة تصبح صعبة الاحتمال في غياب الحب .

ونحن نلاحظ في الحياة اليومية أن الإنسان يتألم حين تنهار قصة حب كان يعيشها ..

وتختلف أنواع الألم باختلاف نوعية الإنسان وقدرته على الاحتمال ، هناك من يحس أن كبرياءه قد جرحت ..

وهناك من يحس أنه قد صدم حين رفضه الطرف الآخر ..

وفينا من يدهشه أن يخونه أحد ..

ومن الناس من يقول : بعد كل ما تحملت من أجله ـ أو من أجلها ـ تعاملني هكذا ؟ !

وعادة يسلمنا هذا الألم إلى شعور من نوع جديد .. إذ يحس الإنسان بعد ما حدث بأنه قد وضع ثقته في غير موضعها ، وهذا يعني بالضرورة أنه قد أساء الحكم ولم يكن يفكر تفكيراً سليماً . وهنا يولد الندم ، وتنبعث من أعماق الروح آلام انسانية تشبه آلام الجحيم ..

المعروف أن الندم هو الشعور الذى يستقبل الناس فى الجحيم ،

ليتني لم أفعل ما فعلت .. ليتني أرد الماضي وأعيد كتابة سطوره .. يا ليت ما حدث لم يحدث ..

وكلمة « يا ليت » .. و« ياليتنى » من الكلمات العجيبة ، إنها كلمات تعني العجز ، وتعني في نفس الوقت زيادة الإحساس بالندم ، وأخطر ما في هذا الإحساس أن استمراره يمكن أن يتلف الحياة الإنسانية .

كيف يجتاز الإنسان هذا الموقف ؟

كيف يخرج من جحيم الندم لو انتهت قصة حبه بالتحطم ؟

كيف يخرج الإنسان من بئر الأحزان لو سقط فيها ؟

هذه هي الأسئلة التي ندعو القارئ والقارئة إلى التفكير فيها ..

وقبل أن نجيب ، نريد أن نتذكر أن هبوط سيدنا « يوسف » في البئر لم يكن نهاية لحياته كما كان اخوته يتصورون ، على العكس من ذلك ، كان هبوطه في البئر بداية لارتفاعه ومجده ، وكان ايذانا بانتقال جديد في حياته ..

ثم نحاول الإجابة عن الأسئلة ، بعد هذه المقدمة السريعة .

سمي القلب الإنساني بالقلب لأنه يتقلب ..

وسمي الإنسان إنساناً لأنه ينسى .

وليس هناك حدود لتقلبات القلب أو نسيان الإنسان وتغيراته ، لو وضعنا هذه القاعدة الأصلية أمامنا فلن تدهشنا تقلبات المحبين ولن تدهشنا تصرفاتهم ..

والناس يتفاوتون في القدرة على معرفة الحب والإحساس به ومن ثم يتفاوتون في ارتكاب الأخطاء فيه .

وليس هناك منطق علمي يمكن الأخذ به في الحب ..

وليس هناك منطق إنساني يمكن اخضاع كل قصص الحب له ..

إن كل إنسان هو عالم قائم بذاته ، وما ينطبق عليه لا ينطبق على غيره ، وحق الفتور في الحب أو حق العدول عن الحب .. ينبغي أن يتوفر للكافة ولا ينبغي أن يثير المرارة إذا وقع .

وأهم طريق لتجاوز هذه الأزمة أن يدرك الإنسان أن ما حدث ليس نهاية العالم .. إذا كانت هذه المرأة قد رفضتني فهناك من يقبلني ، وإذا كان هذا الرجل قد غدر بي فهناك من سيخلص لي ، وليس الرفض أو الغدر قانوناً عامًّا للحياة فهناك الرافض والقابل والغادر والمخاص ، ووقوع الرفض أو الغدر في بداية الحب أفضل من وقوعه في نهايته ، ووقوعه في نهايته أفضل من الاستمرار فيه على غدر ..

بعد هذه البداية ينبغي ألا نحس بالمرارة ..

لنقنع أنفسنا بأن ما حدث كان قدراً مقدوراً ، وكان تجربة لنا ، ولا فكاك من القدر ، أو التجارب ، ولنتذكر قوله تعالى « وعسى أن تكرهو شيئاً وهو خير لكم » .

هذه هي الخطوة الأولى لمواجهة صدمة الحب إذا تحطم ، وتبقى خطوات بعد ذلك .

التفرقة في المعاملة

تشير الدراسات النفسية إلى أهمية العلاقة السوية بين الأب والأم والأولاد . وقد كشف العالم النفسي «أدلر» عن مدى الأضرار والأمراض النفسية التي يمكن أن تقع نتيجة موقف الأب أو الأم من الأولاد .

ولنتحدث عن الأب في البداية ...

يحدث أحياناً حين ينجب الأب أكثر من ولد ، أن ينظر في وجوه الأبناء وطباعهم وينتقي أشدهم تأثراً به أو أكثرهم شبهاً به ويؤثره بمحبته . ويرفض الآباء أن يعترفوا بأنهم يميزون في المعاملة بين ابنائهم ، ولكن الذي يحدث عادة أنهم يفعلون ذلك .

بل لعل الحب لهذا الولد الذي جاء على صورتنا تماماً يكون هنا أمراً طبيعيًّا أو أمراً قلبيًّا لا نملك له تغييرا .

من الطبيعي أن يحب الأب أكثر أبنائه شبهاً به .

هذا أمر منطقي مثلما هو من الأنانية ، لأن الأنانية أن نحب ذاتنا حتى لو كانت ممتدة في ذات أخرى .

إذا كان مجرد الإحساس القلبي بحب ولد أكثر من ولد آخر أمراً لا غبار عليه ، فإن الغبار كله يبدأ حين يبدأ الأب في التمييز في المعاملة بين أبنائه .

وأحياناً كثيرة يحرص الآباء على ألا يبدو في تصرفاتهم ما يوحي بأنهم منحازون لولد ضد ولد .

ولكن هذا الحرص لا يستطيع اخفاء الحقيقة .

لأن الحب يعلن عن نفسه بأكثر من وسيلة وأكثر من أسلوب وأكثر من طريقة . الحب كالماء إذا صادف جبلاً التف حوله وطوقه ولم يعبأ به وتبدأ المأساة حين يظهر التفريق في المعاملة بين الأبناء .

إن الابن المدلل الذي جاء على صورة والده يوشك أن يعتقد بأن له مواهب خاصة لمجرد أنه شبيه بأبيه .

ويسلمه اعتقاده بالمواهب الخاصة إلى اعتقاد آخر : إنه ينبغي أن يعامل معاملة خاصة . وهذا معناه أنه ليس في حاجة إلى الخضوع للنظام والقوانين التي يخضع لها الآخرون ... وأخوته من بينهم .

وهذا يعني عند علماء النفس فساد الشخصية بالتدليل .

ونفس ما قلناه عن الأب ينطبق على الأم .

إن الأم قد تحس إذا أنجبت أكثر من بنت أن في بناتها من تشبهها تماماً سواء في الشكل أو في الطباع أو في المزاج .

وهكذا يبدأ التميز في المعاملة بين البنت التي تشبهها وبقية البنات . وتفسد البنت من التدليل كما يفسد الولد منه تماماً .

يحدثنا علماء النفس أن الرعاية التي يتلقاها الطفل في بداية حياته من والديه ، تلعب دوراً رئيسيًّا في تكوين شخصيته كما تؤثر على صحته النفسية والعقلية .

والولد المدلل والبنت المدللة يتصوران أنهما فوق مستوى القانون لسائد في الأسرة ، وفوق العقاب ، وفوق المؤاخذة .

مثل هذه الشخصية المدللة لا تصمد عادة لامتحانات الزمن ، إن الزمن ليس هو الأب الحاني وليس هو الأم العطوف .

ومن ثم فإن الزمن لن يحابي المدللين ...

ومن هنا ينكسر هؤلاء في صراع الحياة ويصابون بالكآبة النفسية والأحزان .

لنحذر إذن هذه الكلمات التي قد تقال ذات يوم ببراءة .

ـ انظر إن الولد يشبهك تماماً في صفاتك !

هذه العبارة قد تكون بداية لإفساد حياة طفل .

ومهما يبلغ بنا الحب ذروته ، فلنعلم دائماً أننا يجب أن نخضع الأولاد جميعاً لنفس القانون ونفس التعامل ونفس المشاعر ولنخبئ مشاعرنا القلبية في قلبنا ... ولنتصرف بالعدل وحده ... ولنقدم أنصبة متساوية من الحب لأولادنا .

أمثلة عامية حمقاء ..

في بادية العرب أيام الجاهلية ، كانت المرأة تعتبر عاراً عند كثير من القبائل ، وكان وأد البنات فضيلة اجتماعية من الفضائل السائدة يومذاك .

وكان هذا التخلف الإنساني الرهيب مديناً بوجوده للشرك والوثنية والجاهلية العقلية .

كانت المرأة تعتبر مخلوقاً أدنى من الرجل وأقل منه في مرتبة الخليقة . وكان الأب إذا أنجب بنتاً نشب في نفسه صراع قوي ، هل يدسها في التراب أم يحتفظ بها مع احتمالات الهوان القائمة .

ثم جاءت رسالة الإسلام ..

وحمل النص القرآني حملة قاسية على هذا الموقف الاجتماعي المتخلف وأفهم الله تعالى المسلمين بأن المرأة كالرجل سواء بسواء ، فقد خلق الله آدم وخلق منه حواء فليس هناك من هو أفضل أو أقل .

إن المرأة جزء من الرجل ، فإذا كانت أقل فالرجل أقل .

كما هاجم الإسلام النظرة المتخلفة إلى المرأة فلم تعد الأنوثة انتقاصاً من الكائن ولا ضمت الرجولة ميزة للكائن .

إن الرجل مخلوق له وظائفه والمرأة مخلوق له وظائفه .. أما معيار

التمييز بينهما فهو شيء لا علاقة له بالذكورة أو الأنوثة . شيء اسمه التقوى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ..

حرص الإسلام أيضاً على منح المرأة حرية الاختيار كاملة في الحياة ، تماماً كما منح الرجل هذه الحرية .

والزواج في أصله اختيار ..

وهو اختيار خطير لأن حياة الإنسان تلتزم به إلى الأبد . وليس هناك عقد مؤبد في الدنيا سوى عقد الزواج .. وسوء الاختيار في الزواج يعني الوقوع في الشقاء الإنساني ، وهو شقاء لا يتم التغلب عليه سوى بالطلاق والطلاق مكروه ..

من هنا ثبت أهمية وجوب الاختيار بحرية كاملة ..

ومن المهم كثيراً أن يختار الرجل وتختار المرأة ..

ولكن الواقع السائد في الحياة العملية أن الأسرة هي التي تختار .. أو ولى الأمر .. أو كبير العائلة !

ويتم هذا الاختيار بموجب حسابات تختلف عن حسابات أصحاب الشأن الفعليين ..

ليس معنى هذا أننا نعارض اشتراك الأهل في الاختيار ، انما نعارض ضغط الأهل على الفتاة أو الشاب ودفعه دفعاً لاختيار يبدو سليماً من وجهة نظر ناس لن يمارسوا التجربة الفعلية ولن يعيشوا معا كما يعيش الزوجان ..

ولنتأمل مجتمعاً كالمجتمع المصري لنرى فيه كيف يضغط الأهل على الفتاة لدفعها للزواج ..

إن هناك مثلاً عامياً مصرياً يقول « ضل راجل ولا ضل حيط » .

ويقال هذا المثل عادة للفتاة حثا لها على الزواج ، وتخويفاً لها من الوحدة في أيام المستقبل حيث لا يكون جوارها سوى ظل الحائط .

وهذا المثل الشعبي هو احدى أدوات الضغط على المرأة لتتزوج ، وأدوات الضغط كثيرة .. تبدأ من قلق الأمهات وتنتهي إلى القهر والإجبار على الزواج ، ويتم تخويف من تتردد بأنها ستصير عانساً .. ولن تتزوج ، وتنجح الضغوط الأسرية والاجتماعية في دفع الفريسة إلى الفخ .

وباهدار عنصر الزواج الاول وهو الاختيار ، وباستبعاد ركن الزواج الأول وهو القبول .. يولد زواج يشبه وأد البنات القديم . أو يولد زواج هو صورة حديثة من صور الوأد القديم أيام الجاهلية .

الوأد القديم أيام الجاهلية .

قديما كانوا يدسون البنت في التراب .. والآن يدسونها في زواج تعيس تختنق فيه الأسرة بالمشاكل والمآسي ..

فلنحرص على منح حرية الاختيار للمرأة .. ولنطرح جانباً هذه الأمثال العامية الحمقاء .

صور مريضة للحب !

ليست ترفا ...
أقصد الدعوة إلى الحب في مجتمعنا العربي .
هي ضرورة كضرورة الخبز والماء والهواء .

والإنسان على المستوى المادي لا يستطيع أن يحيا دون خبز أو ماء أو هواء ... وهو بنفس الدرجة يختنق روحيًا إذا خلت حياته من الحب

وفكرتنا عن الحب في المجتمع العربي ليست فكرة صحيحة .

إذا أطلقت كلمة الحب تصورنا رجلاً يحرق البخور أمام امرأة تجد راحتها فى تعذيبه بالهجر والصدود .

هكذا ترسم لنا الأغاني صورة الحب ... تستوي في ذلك الأغاني التي تلقى قبولاً عامًا أو التي لا تلقى !

إن أم كلثوم في أغنية لها تقول « عزة جمالك فين من غير ذليل يهواك » ...

ويقول فريد الأطرش في أغنية له « أنت مين وأنا مين ، يا ملاك يا بدر في سماه ... أنت فين وأنا فين ، أنا عبدك وازاي أطمع في بهاك » .

وتأمل هاتين الأغنيتين كنماذج تضع يدنا على كثير من المغالطات والألغام التي تضمها الأغاني ، أليست مغالطة ألا يظهر جمال المحب إلا بذل من يهواه ؟ إن الحب البشري اختيار تشترك فيه الكرامة الإنسانية ، فإذا ضاعت الكرامة ضاع الإنسان ولم يعد قادراً على الاختيار .

ثم تأملي يا سيدتي هذه الألغام في أغنية فريد الأطرش « أنا عبدك » ..

إن المغني يكاد يكفر من فرط حبه ، وهو يفعل ذلك بجهل ، فكلمة العبادة لا تقال إلا لله وتوجيهها لغيره حرام .

ثم تأملي أغنية « والنبي لاحكي له يا منديله » .

إن ادخال رسول الله صلى الله عليه وسلم في أغنية حب حرام أيضاً ! !

إذا سرنا خطوة بعد ذلك وتساءلنا : أي قيمة تقدمها لنا أغاني الحب في حياتنا المعاصرة ؟

إن الرد على ذلك قليل . انها تقدم قيماً قليلة إن كانت تقدم شيئاً على الإطلاق ... اللهم الا هذا النزوع المريض نحو الرغبة في التألم وإذلال النفس طلباً لرضا المحبوب .

* * *

الصورة التي تقدمها فنوننا في معظمها صورة لمرض من أمراض الحب ، لا صورة للحب نفسه . ومن واجبنا إذن أن نهتم بتقديم الصورة الصحيحة للحب . إن الحب عطاء إنساني ، وهو عطاء له

موضوع ينصرف إليه، وله منبع يستمد منه . والاختيار يتطلب إرادة حرة وعقلاً ناضجاً .

ومن المهم جداً أن نربط الحب بالله تعالى ليستقيم أمره كله . إن إنساناً يحب الله هو إنسان يحب الكون والخلائق جميعاً ويشعر تجاهها بالعطف والرحمة . والإنسان الذي يستمد حبه من الله هو الذي يعرف كيف يعطي سواء كان موضوع العطاء هو الزوجة أو الأم أو البنت أو الزميلة أو القريبة أو بقية الخلائق الأخرى . والتعليم يؤثر في عقل الإنسان ويؤتيه قدرة على وزن الأمور والقضاء فيها ، أما الدين والفنون والآداب فتقوم بتربية حاسة الذوق لديهم . وبغير العقل والذوق والوجدان لا يستطيع الإنسان أن يحب حبًّا حقيقيًّا ... غاية ما يستطيعه أن يتبع هواه ويمضي خلف غرائزه مستهدفاً مصلحته أو ما يظن أنه مصلحته .

والعقل يتكون من الثقافة والتعليم .

والذوق يتكون من الآداب والفنون .

والوجدان ينبع من الدين .

نريد أن ندعو إلى الحب الشامل الذي يشبه نهرا يتفرع لآلاف الجداول الصغيرة التي تملأ الحياة بهجة .

نوعان من القيم ...

هناك نوعان من القيم يا سيدتي .
قيم إنسانية وقيم اجتماعية . وأحياناً يقع الصراع بين النوعين ، وأحياناً تحاول القيم الإنسانية أن تحتل مكان القيم الاجتماعية ... وأحياناً يحدث العكس ..

ونلاحظ دائماً أن المجتمع يميل إلى القيم الإجتماعية على حساب القيم الإنسانية إذا كان حظه من التقدم قليلاً ، ولكنه يميل إلى تغليب القيم الإنسانية على الاجتماعية إذا كان حظه من الرقي كبيراً .

وحين نزلت رسالات السماء ، كان محور الصراع الأساسي لها أنها حاولت إحلال القيم الإنسانية العليا مكان القيم الاجتماعية السائدة :

إن الثراء أو المال قيمة اجتماعية .

والسلطان قيمة اجتماعية ... والأبهة أو النفوذ قيمة اجتماعية .. والاقتناء والاكتنازأو الاستهلاك أو التفاخر بمظهر الأفراح أو المآتم قيم اجتماعية .

ومعظم القيم الاجتماعية تدور حول أشياء مادية كالمال والقوة والجمال الشكلي .

أما القيم الإنسانية فهي صحة الفؤاد وسلامته بتوحيد الخالق ، وهي الإيمان بحب الخير وخوض الحرب ضد الشر ، وهي تنوير الذهن بالمعرفة الإنسانية وتهذيب الوجدان بالثقافة ، وهي حب الجمال الداخلي الذي تخضع فيه الرغبة للحكمة ، ويتوازن فيه الضمير مع كلمات الله سبحانه .

أي أن معظم القيم الإنسانية تدور حول أشياء معنوية كالتوحيد وجمال الحقيقة والصدق .

ومن هنا كان الصراع بين نوعي القيم .

ولعل أخطر صراع يدور بين نوعي القيم يدور في الزواج ... في اختيار الشخص الآخر ليكون رفيقاً لنا في الحياة .

تأمل شابًّا يريد أن يتزوج ... تأمل رغباته في العروس .

إنه يريدها جميلة الشكل ... غنية . ويريدها من عائلة لها نفوذها .. ويريد جهازاً يتفق مع وضع العروس المادي والاجتماعي .

أو تأمل فتاة تريد أن تتزوج ... إنها هي الأخرى تريده مقبول الشكل وحبذا لو كان غنيًّا ناجحاً يملك سيارة وفيللا وعدة أرصدة في البنوك . ويستحسن أن يكون من عائلة لها نفوذها الاجتماعي ... أي أن الاختيار هنا ينصب على القيم الاجتماعية . وهذا الاختيار يؤدي إلى نتائج ليست مرضية .

لم يسأل أحد العروسين عن الآخر : هل هو مؤمن أو لا ؟ هل هو طيب القلب أو لا ؟ هل يحب الأطفال ويعطف على البؤساء أو لا ؟ هل يعطي الحياة أكثر مما يأخذ منها أو يقتصر دوره على الاستهلاك فيها ؟

لم يسأل أحد العروسين عن القيم الإنسانية العليا .

إن الأسئلة كانت محصورة في مجال القيم الاجتماعية .

والفرق بين القيم الإنسانية والاجتماعية هو الفرق بين الماهية الحقيقية والملكية الزائفة .

إذا سألنا عن شخص ما بقولنا : من هو ؟

كان السؤال عن القيم الإنسانية .

لأن الجواب سيحدثنا عن عقله وضميره وحظه من الرقي والثقافة .

فإذا سألنا عن شخص ما بقولنا : ما عنده ؟ أو ما وضعه الاجتماعي ؟ كان السؤال عن القيم الاجتماعية ، لأن الجواب سيحدثنا عن أملاكه وأمواله وعقاراته ومنقولاته .

والإنسان الإنسان هو الذي يحمل قيماً إنسانية لا قيماً اجتماعية .

هل جفت عبقرية العصر ؟

قال الرجل : هل نضب عصرنا وجفت عبقريته ؟

قال صديقه : لماذا ؟

قال : لم يعد عصرنا قادراً على إبداع قصة حب مثل قصة قيس ابن الملوح وليلى العامرية !

ضحك صديقه طويلاً وقال : عصرنا أسرع من أن يعيش قصة حب كهذه . مثل هذه القصة القديمة الصادقة تحتاج إلى صحراء عارية لا تعرف أنصاف الحلول ، وتحتاج إلى قلب بريء كقلب قيس ، وتحتاج إلى بطء في إيقاع الحياة ذاته ..

قال الرجل : ليست القضية هي بطء الإيقاع أو سرعته .. القضية كانت فرط الحساسية وتوقد الخيال ..

هذه هي القضية .

إن قيس يغدر ليلى ثم يعود إليها . يلتقيان على سفح رامة ، يكتشف أن إحدى أصابعها مبللة باللون الأحمر .

ويحزن قيس ..

لقد خضبت ليلى كفها بعد أن مضى قيس .

في عرف المحبين هذه خيانة ..

إن خضاب الكف يعني الفرح . فكيف تفرح ليلى ونصفها الآخر قد هجر ؟ .

أنظر أنت إلى تفسيرها لما وقع :

ولما تلاقينا على سفح رامة
وجدت بنان العامرية أحمرا
فقلت خضبت الكف بعد فراقنا
فقالت معاذ الله ذلك ما جرى

لقد أنكرت ليلى أنها خصبت كفها ..

ما حدث شيء آخر تماماً
ولكني لما رأيتك راحلاً بكيت دماً
حتى بللت به الثرى
مسحت بأطراف البنان مدامعي
فصار خضاباً بالأكف كما ترى .

لقد اتضحت براءة ليلى من تهمة الفرح .

لم تكن فرحة وإنما كانت تبكي ، ظلت تبكي حتى سال دمها مع مجرى الدموع وخضب يدها .

تأمل جمال هذه الصورة . إن ليلى هنا تضع قانوناً من قوانين الحب البشري العتيدة .. وهو قانون الحزن إذا افترق الأحباء .

لم يكن قيس غافلاً عن قوانين ليلى ، كانت له قوانين قيس هو الآخر ، لقد زعم يوماً أنه سمع ليلى تقول إنه لا يحبها ، قال ردًّا على ذلك :

ألا زعمـت ليـلى بـأن لا أحبهـا
بـلى والليـالي العشر والشفـع والـوتـر
بـلى والـذي لا يعلـم الغيـب غيـره
بقـدرتـه تجـري السفـائن في البحر
بلى والـذي نـادى من الطـور عبـده
وعظـم أيـام الـذبيحة والنحـر
لقـد فضلـت ليـلى عـلى النـاس مثلما
عـلى ألـف شهـر فضلت ليلة القـدر

هذا هو قانون قيس .

إن الفرق بين ليلى وكل نساء الأرض ، هو الفرق بين ليلة القدر وبقية ليالى الزمان المعتادة .

عاد صديقي يتنهد ويقول :

ـ أين ذهبت ليلى وأين ذهب قيس ؟ .

قلت : أين ذهبت الصحراء ؟ ؟ .

امرأة واحدة ... وكل النساء !

كل امرأة في الدنيا هي امرأة واحدة ، وهي كل النساء في ؛
الوقت .

الإنسان مخلوق رائع بالغ التركيب والإبداع . ودروب النّ
الإنسانية ما زالت شبه مجهولة للعلماء والدارسين . وإذا كان الإ؛
يكتشف أسرار الكون فإن حقيقة ذاته لم تزل سرًّا .

وقد شاءت إرادة الله تعالى أن يكون الرجل رجلاً ، ورمزاً
الرجال في الوقت نفسه . وأن تكون المرأة امرأة ، ورمزاً لكل الـ
في الوقت ذاته .

فلنتأمل طفلة عمرها خمس سنوات .

لنتأمل كيف تلعب بعروستها . وكيف ترقدها في فراشها وتر
عليها لكي تنام . ثم نتأملها وهي تضم العروسة لصدرها مثلما
الأم ابنتها لصدرها .

أتتمرن هذه الطفلة على الأمومة ؟

من الذي حدثها عن مهمتها المقدسة وهي طفلة لم تكبر بعد ؟

إن هذه الطفلة التي تلعب بعروستها وتقول لها : « نامي يا حبيبتي
هذه الطفلة ورثت كل مشاعر الأمومة من جميع جداتها صعوداً
حواء .

في الأصل لم تكن هناك غير حواء . ولكن حواء كانت امرأة واحدة وكانت ملايين النساء في الوقت ذاته . ومن لقاء آدم وحواء ولدت ملايين الملايين من حواء وملايين الملايين من آدم !

لا تندهشي يا سيدتي إذا أحسست بأن داخلك أكثر من امرأة . المهم أن تنتقي من هاته النسوة أفضلهن .

هناك فاطمة .. وهناك فيفي ..

هناك خديجة .. وهناك ديدي ..

وهناك سعاد .. وهناك سوسو ..

هناك هذه الرغبة الطاووسية في استعراض الجمال ، في لفت الانتباه ، في اثارة الدهشة ، في تجميع الإعجاب وإثارته .

وهناك رغبة أخرى طبيعية وأصيلة . الرغبة في أن يحتويها منزل مع رجل تحبه وتنجب منه طفلاً تعكف على تربيته وتهب حياتها كلها له .

من ننتقي من هذه النساء ونمنحها اهتماماً خاصًا لكي تتقدم بقية النساء ؟

هذا هو السؤال الذي يطرح نفسه على المرأة حين تحس داخلها بأنها كل النساء .

هل تتقدم المرأة التي تريد أن تعطي ؟

أو نقدم المرأة التي تريد أن تأخذ ؟

إن قوانين العطاء والأخذ تصلح معياراً للتفضيل .

إن المرأة التي تأخذ من الحياة الإعجاب والزهو والاهتمام ليست هي الصورة الحقيقية للمرأة .

الصورة الحقيقية للمرأة هي النموذج الذي يعطي .. يعرف كيف يمنح دائماً . من واجبنا أن نهتم داخلنا بأفضل النساء ، وأن نقدم المرأة التضحية ، ونقدم المرأة الأم ، لا يعني هذا أن نترك بقية النساء يذوين من العطش . داخل كل امرأة عديد من النساء ، الأم والبنت والأخت والزوجة والحبيبة والصديقة .. وأحياناً يكون من حسن الفطنة أن تعيش كل هاته النساء معاً في سلام ، وأن تصعد كل واحدة إلى المسرح حين يقتضي منها دورها في الحياة ذلك .

أسطورة قديمة ...

من الأساطير القديمة التي تكشف لنا عن أسلوب المرأة في التفكير هذه الحكاية . في قديم الزمان ، وسالف العصر والأوان ، عاشت فتاة جميلة ، كان والدها رجلاً طيب القلب ويحبها كثيراً .

أما هذه الفتاة فكانت قمراً بين النساء .

كانت نادرة الطباع ، لطيفة ورقيقة ...

وجاءها في سن الزواج ثلاثة رجال كل واحد منهم يفضل الثاني . وطلب الثلاثة يدها .

ولما كانوا متقاربين في المواهب والفضائل والصفات ، فقد ذهبت إلى أبيها وقالت له : يا أبي ... أريد أن تختار لي واحداً منهم .

قال لها الأب وكان حكيماً : يا ابنتي .. أنت صاحبة الاختيار . اختاري أنت وخذي وقتاً كافياً للاختيار .

ترك لها الأب مسؤولية الاختيار . ومرت الأيام والأسابيع والشهور ، والفتاة مترددة لا تستقر على رأي ، كان الثلاثة يحبونها . وكان الثلاثة متساويين في الفضائل .

وفي يوم حزين من أيام الصيف سقطت الفتاة مريضة ..بعد ساعات كانت قد أسلمت الروح وماتت .

ودفنها والدها وسط صمت فاجع .

أما الرجال الثلاثة الذين أحبوها فقد اختلف موقفهم . ذهب الأول إلى أبيها عاش معه يواسيه ، ويخفف عنه ويخدمه .

أما الرجل الثاني فقد ذهب إلى قبرها وعاش فيه ، اتخذه سكناً له وعاش حزيناً يتأمل .

أما الرجل الثالث فقد خرج من ثروته وتنازل عنها للفقراء وقرر السياحة في الأرض . كان موتها بالنسبة إليه نقطة تحول خطير . فلم يعد قادراً على الاستقرار في مكان واحد لفترة طويلة .

خرج الرجل السائح . وبدأ سياحته في الدنيا . سار طويلاً ودخل مدناً جديدة والتقى بناس حكماء وناس حمقى . وذات يوم وصل إلى مدينة غريبة فيها حكيم غامض.

طلب الرجل السائح مقابلة الحكيم وحدثه عن قصته وأحزانه فاستبقاه الحكيم للعشاء .

جلس الحكيم يأكل مع ضيفه السائح . وكان هناك طفل صغير في الغرفة ... هو حفيد الرجل الحكيم .

وبينما هما يأكلان بكى الطفل الصغير ، فنهض الحكيم وأمسك الطفل وألقى به في نار المدفأة ليكف عن البكاء . نهض الرجل السائح مرعوباً وهو يحتج على هذه الجريمة النكراء وتهيأ لمغادرة الغرفة وهو يتهم الحكيم بالحمق .

قال الرجل الحكيم وهو يبتسم : لا تنزعج أيها السائح في أرض الله . لا تشغل بالك ، هذا شيء بسيط ولكنه يبدو شيئاً منكراً في غياب المعرفة . اجلس هادئاً ودعنا نأكل .

لم يمس السائح الطعام وأكل الحكيم .

بعد أن أكل الرجل الحكيم قرأ شيئاً يشبه التعويذة وأمر حفيده الطفل أن يخرج من نار المدفأة فخرج الطفل سليماً كأنه لم يمس .

حفظ السائح التعويذة الغامضة وانصرف من فوره عائداً إلى بلاده ، ذهب إلى قبر حبيبته وقرأ عليها التعويذة فخرجت من القبر تفرك عينيها كأنها كانت نائمة .

توجهت الفتاة إلى بيت أبيها وعاد الثلاثة الذين كانوا يطلبون يدها إلى طلب الزواج منها .

تنازعوا بينهم على من يستحقها .

قال الرجل الأول : لقد واسيت والدها وخدمته وعشت معه طوال هذا الوقت .

قال الرجل الثاني : لقد عشت في قبرها متصلاً بها بفكري طوال الوقت ملاحظاً حاجة روحها لأي عون أرضي .

قال الرجل الثالث : لقد سحت في العالم بحثاً عن المعرفة ، ولولا هذه المعرفة ما عادت إلى الحياة . أنا الذي أعدتها للحياة ...

اختلف الثلاثة فرفعوا أمرهم إلى الفتاة لتحكم بينهم . فماذا كان حكمها ؟

قالت الفتاة : الرجل الذي عثر على التعويذة التي أعادتني إلى الحياة حكيم إنساني . والذي خدم أبي كان يتصرف كابن له وأخ لي .. أما الذي رقد في قبري وعاش فيه فقد تصرف كعاشق ... وهذا هو الذي سأتزوجه ! ! !

القلعة الأخيرة !

يضم الشباب جنسين : الرجل والمرأة .

يتوقف نجاح الرجل على المرأة ويتوقف صلاح المرأة على الرجل .

وفي مجتمعاتنا التي تفرق بين الجنسين في المراهقة والشباب ، تلعب المرأة دوراً أكبر من دورها في المجتمعات المختلطة .

وهذا طبيعي جداً ..

إن وجود حاجز بين الرجل والمرأة يجعل للمرأة مكانة أعمق في نفس الرجل . ولقد قيل بحق في حضارتنا : ان المرأة هي القلعة الأخيرة للرجل

بمعنى أن بقاء المرأة صامدة مستعصية على الغزو ، يجعل الرجل جامداً مستعصياً على الغزو .

وعن أي غزو نتحدث وسط عالم متمدن يقترب من القرن الحادي والعشرين ؟

لقد تغيرت أشكال الغزو وأدواته في السنوات الأخيرة . قديماً كان الغزو يتم عن طريق الجيوش ، وكانت الأسلحة المستخدمة فيه هي السيوف والحراب والسهام . ثم تطورت الحروب باستعمال الأسلحة النارية ، ثم تطورت إلى استخدام الصواريخ ووصلت قمتها باستخدام الأسلحة الذرية .

وبوصول العالم إلى الأسلحة الذرية ، تحولت الحروب إلى توازنات في القوة . ولم يعد ممكناً أن يقامر العالم بحرب ذرية . وهكذا وصل السلاح إلى خطر جعل منه سلاحاً عاجزاً عن الدخول في المعركة

هذا الموقف أدى إلى موقف آخر ...

بدا واضحاً أن غزو الإنسان بالحروب التقليدية ليس هو الطريقة المثلى للغزو ، لأن التحدي الذي تثيره الحروب في نفس المعتدي عليه ، والوطنية التي تخلقها ، يؤديان إلى صعوبة إخضاع الإرادة الإنسانية ...

إذن كان لا بد من أسلوب جديد للغزو ... أسلوب لا عنف فيه ولا تحد . أسلوب يعتمد على غزو العقول والقلوب . أسلوب يقتنع فيه المحتل بأنه حر ، ويصدق فيه المهزوم أنه منتصر .

هذا الغزو الجديد الذي يقع على المستوى الفكري هو أخطر ألوان الغزو ، ولذلك قيل إن المرأة هي القلعة الأخيرة للرجل .

إن المرأة تستطيع صد هذا الغزو مبكراً بحكم كونها أمًّا وزوجة وشقيقة ...

هل نربي فتياتنا لكي يقاومن الغزو الفكري ؟

هل نحصن المرأة كما ينبغي بالعلم والدين لكي تربي طفلاً يكون رجلاً له شخصيته المستقلة التي لا تستسلم لبريق الغزو الحضاري الجديد ؟

هذا هو السؤال ! !

الرضا عن الواقع ...

كان الحوار يدور بيني وبين أحد أبنائي .

كان يشكو عديداً من الأشياء . وأحسست من شكواه أنه ليس راضياً عن الواقع .

سألته حين انتهى من حديثه : كم عمرك ؟

قال : عشرون سنة !

قلت له : أنت غير راض عن الواقع ؟

قال : اعترف بذلك ... واعترف بالأسف لذلك أيضاً .

قلت له : في اعترافك بحقيقة مشاعرك شجاعة ، أما اعتذارك عن شجاعتك وإبداء أسفك فيعني أنك لم تزل أحمق .

سكت قليلاً وبدا عليه الوجوم حين اتهمته بالحمق . لم أتركه لوجومه طويلاً وقلت له بهدوء :

ـ لماذا تظن أن الرضا عن الواقع أمر يرضي الكبار ؟ إن رضاء الشباب عن الواقع المعايش يعني أن الحياة لا تتقدم . إن تقدم الحياة هو الفرق بين رضاء الكبار واحتجاج الصغار وعدم رضائهم .

قال لي : لست أفهمك جيداً ... أرجو أن توضح فكرتك .

قلت له : كل جيل له أحلامه . كانت لنا أحلامنا حين كنا في

العشرين ، ثم وصلنا إلى الخمسين ، وجاءت أجيال في العشرين .

هل تظن أن أحلام جيلنا تشبه أحلام جيلكم ؟

تصور أنها تشبهها ... افترض أن الحلمين تطابقا . إلى أين تسير الحياة حتى تكرر نفسها ؟

إن تغيير الحياة يستوجب وجود فارق بين أحلام الكبار وأحلام الصغار . وعدم بعد الشباب عن الواقع الذي يعيشونه يعني أن الحياة تتحرك إلى الأمام . ومن المهم كذلك أن تكون أحلام الشباب متوهجة وحالمة ، وأهم من هذا كله أن يستطيع الشباب تحمل أحلامه ...

إن التقدم الحقيقي بالنسبة للحياة هو تجددها وتطورها ... ولا تتجدد الحياة إذا ثبتت الأحلام في مكانها ولم تعد قادرة على التحليق .

من حق كل جيل أن يحلم أحلامه الخاصة ... ومن حق اليوم أن يحلم اليوم ... ومن حق الأمس أن يحلم الأمس . ليس من حقه أن يفرض حلمه على الناس حتى يتدخل لتشكيله كما يهوى .

إن الذين سيعيشون في الغد هم أبناء العشرين لا أبناء الخمسين ... هل فهمت ما أعنيه ؟

نساء كالمدن ..
ونساء
كالصحراوات

هناك نساء كالمدن الجميلة .. ونساء كالصحراوات القاحلة .

وهناك رجال كالبحار المفتوحة .. ورجال كالمستنقعات المغلقة .

والمرأة المدينة هي المرأة التي لا تكف عن العطاء . يستوي في ذلك أن تكون البيوت مسدلة الستائر ، أو مفتوحة النوافذ . ويستوي في ذلك أن يكون هناك صخب أطفال يلعبون أو هدوء رجل يقرأ .

أما المرأة الصحراء فتمشي في فيافيها فلا تقع عينك إلا على كثبان الرمال ، وكلما اشتد بك الظمأ اسرعت نحو هذا السراب الذي تتوهم أنه واحة .. ويبتعد السراب الوهمي كلما اقتربت منه .

هل تريدون مثالاً لامرأة كالمدينة وامرأة كالصحراء ؟

السيدة خديجة رضي الله عنها مدينة كاملة .. وزوجة فرعون مدينة .

أما المرأة الصحراء فزوج سيدنا لوط عليه السلام .

أما السيدة خديجة فكانت عطاء لا يتوقف وكانت حناناً لا ينضب . وكانت سكناً للرسول .. وظلاً ظليلاً وشراباً .

أما زوج لوط فقد خانته في عقيدته . خرجت عن التوحيد . صارت صحراء من الملح التي يهلك من يسير فيها إذا التفت خلفه .

من هو الرجل البحر ؟

هو الرجل الهادئ الذي لا يكدره شيء وان ألقيت فيه آلاف
كدار ، وهو الصفاء الذي يصفو به الكدر ذاته . والرجل البحر هو
ي ينطوي داخله على لؤلؤ ينام في محارات الألم ، ويخفق فيه الموج
دًا وجزراً مع حركة النجوم والقمر .

أما الرجل المستنقع فهو الرجل الراكد المنسط الآسن ، المتوقف
جوده على العمليات الفيزيائية ، فهو يأكل ويشرب وينام ويصحو
يخرج ويدخل .. ولكنه لا يحلم ولا يملك القدرة على الحلم .

هل تريدون نموذجاً لرجل بحر ورجل كالمستنقع ؟

كل الأنبياء رجال كالبحار ، وكل الشهداء رجال كالبحار ،
كل الأولياء رجال كالبحار .

أما الرجل المستنقع فهو أبو جهل وأبو لهب وهامان وفرعون .

أحياناً يتزوج رجل كالبحر من امرأة كالصحراء .. أو تتزوج
رأة كالمدينة من رجل كالمستنقع .

لقد تزوج لوط (وهو بحر) من زوجته (وهي صحراء) وتزوجت
رأة فرعون (وهي مدينة) من فرعون (وهو مستنقع) .

هنا تكون النتيجة مأساة بأي صورة من الصور .

قد تختلف النتائج باختلاف المواقف .. ولكن النتيجة النهائية هي
الشقاء .

يشقى الرجل البحر إذا تزوج من امرأة صحراء .

وتشقى المرأة المدينة إذا تزوجت من رجل مستنقع .

إن البحر والصحراء لا يتفقان . إن ماء البحر يضيع في الصحراء فلا
يظهر أثره .

كما أن المدينة تشقى إذا انفتح عليها مستنقع ..فالطرقات تغرق والحركة تتوقف .

يظل هناك فاصل بين البحر والصحراء ، ويظل هناك عداء بين المدينة والمستنقع .

أما الجنة على الأرض فاقتران رجل كالبحر من امرأة كالمدينة .

ليس هناك أصفى من مدينة يرقد البحر عند مشارفها وتهب عليها الرياح المنعشة التي تحمل رائحة عطر البحار .

ولقد كان زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من السيدة خديجة بعثاً للجنة على الأرض .

أما الجحيم على الأرض فهو اقتران الصحراء بالمستنقع ، أو وقوع المدينة في براثن الصحراء .

كيف يعرف الرجل انه بحر أو مستنقع ؟

وكيف تعرف المرأة أنها مدينة أو صحراء ؟

إن معيار المعرفة هنا هو الإيمان والوعي بالحب الإلهي والكوني والحنان والعطاء .

كلما أخذنا بحظ من ذلك كنا بحاراً أو مدناً ..

وكلما ضاع منا الإيمان تحولنا إلى صحراوات الملح ومستنقعات راكدة .

الطفل الأول ...
والثاني

يلعب فارق العمر بين الأطفال دوره في حياة الأطفال .

وربما تعقدت حياتهم فيما بعد بسبب تأرجح المعاملة مع الأب والأم . وسوف تبقى دائماً قصة « الأخوة كرامازوف » للروائي ديستيوفسكي خير مثال على مجموعة من الأخوة الذين يفرق بينهم لسن ، وتجمعهم وحدة العداء ضد الأب وضد بعضهم البعض .

وموضوع الأخوة الأعداء محزن كمأساة إنسانية ، ولكنه مجال خصب لعلماء النفس لاستكناه أغوار النفس .

وقد لوحظ عادة على الطفل الأول انه يكون طفلاً معرضاً للتدليل والإسراف في ذلك . ويدرك الأطفال حين يحيطهم حنان غير عادي ن حناناً غير عادي يحيط بهم . يتصور الكثير منا أن الأطفال لا يحسون بالحنان الزائد والحقيقة أنهم يحسون به ويرتبون على هذا لإحساس شعوراً بأن هذا من حقهم إلى الأبد .

ثم يولد للأسرة طفل آخر . وينصرف اهتمام الأب والأم عن طفلهما الأول إلى هذا الوليد الجديد ، في البداية يحس الطفل الأول تغير في شخصية أمه حين تبدأ الحمل . انه يشعر أن والدته متوعكة ،

وأنها لا تعطيه نفس القدر من الاهتمام الذي كانت تمنحه له قبل الحمل .

ويمر الوقت ويلاحظ الطفل أن بطن أمه تمتلئ . ولم يعد الآن من حقه أن يقفز جالساً على بطنها وهي نائمة كما كان يفعل من قبل . انهم ينهرونه لو فعل ذلك أو حاوله . بدأت حريته تصطدم بالحدود .

ثم يمر الوقت وتضع الأم طفلها الثاني . ويتحول الاهتمام كله من صاحبنا إلى الوليد الجديد .

ومثلما يقولون بلغة المسرح أو التليفزيون ... أن الممثل قد سرق الكاميرا من زملائه ، كذلك يسرق الطفل الجديد الكاميرا من شقيقه الأول .

ويمتلئ الطفل الأول بمرارة مفاجئة .

إن امتيازاته ، وحقوقه ، ومكانته ، وأهميته ... هذا كله يتصدع ويوشك أن يضيع مع مجيء هذا الوافد الجديد الذي لا يتكلم ... ولكنه يثير البيت كله إذا صرخ .

كل البيت يهرع نحوه لمجرد صرخته .

ويجرب الطفل الأول أن يصرخ .

يجرب أن يمرض . يجرب أن يرسب . يجرب أن يثير الاهتمام .. ويجرب هذا كله بأي أسلوب وكل أسلوب ..

يتحول الطفل هنا إلى محارب في ميدان تنازع البقاء ، وعليه أن يثبت وجوده أو يضيع .

ولهذا السبب تتغير شخصية الطفل الأول حين يولد الطفل الثاني ، وينصرف عن الطفل الأول اهتمام الأسرة .

ولقد عرفت أسرة أنجبت طفلاً ثانياً ، فانصرف إليه اهتمامها . ثم فوجئت ذات يوم بأن الطفل الأول وقف على رأس شقيقه وقال : نفسي أخنقه وأرتاح منه .

كيف يمكن علاج هذا الموقف ، موقف الطفل الثاني في الأسرة؟

إن الحل البسيط أن يظل اهتمام الأسرة بالطفل الأول كما هو ، وأن تحاول الأسرة دفع الطفل الأول إلى رعاية أخيه باعتباره كبيراً عنه ، ومن ثم فهو مسؤول عن هذا المخلوق الصغير الذي يحتاج لرعايته .

أي أننا يجب أن نشرك الطفل الأول في مسؤولية الاهتمام بالثاني . ومن خلال الثقة التي تولدها المسؤولية لا يحس الطفل الأول بالنفي أو عدم الاهتمام أو النبذ .

ماتت حواء أمس

ماتت حواء ..

فما أشد الشعور بالحزن الفاجع .

أعرف أن من البطولة أن يحمل الإنسان حزنه وحده ، ومن العجز أن يكون الإنسان غير قادر على البوح بأحزانه .

وبين البطولة والعجز سقطت . حين نهضت كانت الأرض تدور فألقتني في مكان بعيد !

ماتت أمي أمس .

دهمني الحزن مثل قطار مسرع ..

بعد أن مر القطار ، تأملت غيمة هناك وعجبت أي جهد تبذله لكيلا تذوب في البكاء . وتماسكت مثل غيمة ثقيلة .. تلقيت النبأ بهدوء ظاهري ، ولكنني سمعت داخلي انهيار زلزال صامت .

أحسست أنني هرمت فجأة .

انتهى الأمر ولم أعد طفلاً ..

ذهبت المرأة الوحيدة التي كان يمكن أن تغفر لي كل شيء .. حتى الأكل من الشجرة المحرمة !!

كانت أمي ـ في تصوري ـ هي حواء .

وقد ورثت أمي من حواء الكبرى كل شيء .. وكانت تلخيصاً معجزاً ومدهشاً لكل النساء في الأرض .. ولهذا أحسست أن نساء الأرض ينسحبن جميعاً من أمام عيني حين ماتت أمي .. وارتعشت عظامي من البرد والوحدة .

هذا بحر اليتم .

رمال الشاطئ بيضاء لا يمكن التحديق فيها ، وقاعه بعيد حتى ليبدو بلا قاع .. وعلى الشاطئ المهجور أقف وحيداً .

منذ سنوات بعيدة كنت أجلس على الشاطئ بينما تقف هي ورائي لتدفع عربة الأطفال بيدها أثناء نزهتي اليومية على البحر .

كان عمري وقتئذ ثلاثة أعوام أو أربعة . وكنا نعيش في مدينة الاسكندرية ، ثم بهتت كل ذكرياتي فيها ولم يعد حيًّا سوى هذا المشهد .

الشاطئ الرملي ، والبحر الأزرق ، وزبد الموج الأبيض وهو ينساح على الشاطئ ، والأفق ، وغيم في السماء ، وأمي وهي تدفع عربة الأطفال أمامها .

كنت طفلاً فرسخ في وعيي وهم داخلي بأن الأفق والبحر والشاطئ وأمي عناصر كونية ، وأنها غيرُ قابلة للاختفاء أو الموت .

ثم صححت الأيام هذا الوهم فجأة .

آمنت اليوم ان عناصر الكون كلها الى زوال ..

كل شيء هالك .. ويبقى وجه الله تبارك وتعالى وحده .

وجدتني أتمتم حين ماتت أمي بآية تقول : «إنا لله وإنا إليه راجعون» . تمتمت بها كأنني تعلمتها يوم أخذ العهد ، لا في الدنيا . كانت تبدو

لي قديمة قديمة .. أقدم من الدنيا بكثير .. وعاود ذهني شروده .

تذكرت حين وقعت مصيبتي ، مصيبة سيد الأنبياء . كان يتيماً منذ طفولته .

أما نحن فمتعنا الله بالأم سنوات طويلة .

ثم أدركنا اليتم ونحن نقترب من عامنا الخمسين . كيف احتمل سيد الخلق فقدان أمه وهو في الخامسة من عمره ؟ وكيف احتمل قبلها يتم الأبوة وهو يولد ؟

أي عناء عانى ، وأي أحزان أحس ، وأي رقة في الشعور وأي إرهاف في الأحاسيس صنعته هذه الأحزان ..

هذه هي الأحزان الكبرى التي تبدو جوارها أحزاننا مثل صور باهتة .

تعزيت بيتمه عما أصابني ، واحتسبت أمي عند الله ولم أجزع .

وانصرف همي لطلب الرحمة لها من رب العالمين .

لا يعترف الإسلام بالموت كنهاية .

الموت عندنا نوم يستيقظ منه النائم على يوم القيامة . لا أحد ينكر أن الموت يفصل بين الأحبة في الدنيا . ولكن مصير الأحبة هو التفرق في الدنيا على أي حال بالموت ، واللقاء يوم القيامة في رحمة الله في الجنة .

إنني أرثي أمي وسيدتي الخاصة .

وأدعو لها بقوله صلى الله عليه وسلم : «اللهم لا تحرمنا أجرهم ، ولا تفتنا بعدهم ، واغفر لنا ولهم» .

أسرار الأمومة ؟

ليست هناك قوة بشرية في الوجود تستطيع أن تقوم مقام الأمومة ..
لا خلاف بين العلماء أو المفكرين أو الأطباء على ذلك !

بمعنى أنه ليس في استطاعة أية قوة في الوجود أن تقدم بديلاً عن عطف الأم وحنانها . ولقد جربت بعض الدول والفلسفات محاولات لتنشئة الأطفال بعيداً عن حنان الأمومة ، وقدمت كل ما يريده الأطفال .. ولكنها فشلت .

كان هتلر يعتقد بسيادة العرق الآري ، وكان يعادي السامية ويحتقرها .

وكان النازيون في عصره يقومون بتجارب على البشر لتحسين سلالاتهم ، شأن التجارب التي تجري على البقر والخيل لتحسين سلالاتها . فكانوا يزوجون أكمل الشباب الآري بأكمل الفتيات الصحيحات الجميلات . وكانوا يتعهدون النسل بعد ذلك كما نتعهد نحن البقر في حظائرها .

وكانوا يقدمون للأولاد كل الخدمات الطبية والتعليمية والثقافية ..
وفشلت التجربة فشلاً ذريعاً .

رغم كل إمكانيات ألمانيا .. فشلت التجربة !

ذلك أن الأمومة ليست وظيفة آلية يمكن أن تنهض بها الدولة أو أية هيئة من هيئاتها .

لا .. ولا هي وظيفة يمكن أن تقوم بها مؤسسة تربوية بالغة ما بلغت من المعرفة والتقدم والإمكانيات .

إنما هي علاقة إنسانية ..

الأمومة علاقة إنسانية حية وتبادلية تتغير فيها شخصية الأم وشخصية الطفل .

ينموان معاً .. ويستمدان البهجة من وجودهما وعلاقتهما المتبادلة .

وقد ثبت أن الأمومة ليست هي عدد الساعات التي تستلزمها رعاية الطفل كل يوم ، وليست هي مواعيد الوجبات المنتظمة ، وليست هي التطعيم الصحي ضد الأمراض ، وليست هي الدروس ولا اللعب . إنما هي شيء وراء ذلك .

شيء يتضمن ذلك ويزيد عليه .

الأمومة علاقة إنسانية حباها الله تعالى بقدرة على العطاء طوال الأربع والعشرين ساعة في اليوم وطوال أيام الأسبوع السبعة وطوال ٣٦٥ يوماً في السنة ، ثم طوال سنوات وسنوات بعد ذلك .

وكل طفل يحتاج إلى أن يشعر بأنه ينتمي إلى أمه

وكل أم تحتاج إلى أن تحس بأنها ملك لطفلها .

والانتماء والملكية شعوران ضروريان للنمو النفسي عند الأم والطفل .

فشلت إذن المؤسسات التي حاولت أن تلعب دور الأم . وبقيت الأمومة قلعة لا تنازعها قوة ولا تستطيع اقتحامها مؤسسة .

وتتطور العلاقات بين الأم والابن عادة فتأخذ دورة عجيبة تثبت

أن كل شيء في الأرض يدور حول محور ، فيبدأ ويمضي ويعود من حيث بدأ .

في البداية تلعب الأم دور الأم مع طفلها وتدلله وهذا فضل منها ، وتضربه وهذا فضل منها . والحنان والضرب معاً وجهان لعملة واحدة هي الحب ، وهما معنى لشعور واحد هو الخوف والاشفاق ، ثم يكبر الطفل وتصغر الأم بالشيخوخة .

يصير الطفل كهلاً وتدرج الأم نحو الشيخوخة .

والشيخوخة ارتداد إلى الطفولة ، فيها حساسية الأطفال وتشبثهم وسرعة الغضب وسرعة الرضا واللهفة والإصرار .

وهكذا تتغير العلاقة بين الأم والابن حينما يكبران .

تتحول الأم إلى ابنة كبيرة ويتحول الابن إلى أب صغير .

تمارس الأم إحساس البنت التي تتعلق بأبيها ، ويمارس الابن احساس الأب الذي يحنو على طفلته .

أي أسرار أودعها الله تعالى في الأمومة ؟

أي أسرار ؟

بعد الطفل الأول تغيرت زوجتي تماماً

لا يمكن اكتساب الحكمة الحقيقية باعتزال هذا العالم ..

هذه هي الفكرة التي أفصح عنها ماركوس أوريليوس .. وهذه الفكرة تؤدي بالضرورة إلى الدخول في أحضان الحياة العائلية .

وفي مرحلة الشباث يبدأ الشباب عادة بأن يحلموا أحلاماً أكبر من قدرتهم على تحقيقها ، ثم يزيد نضجهم حين يتعرضون لنيران الحياة فينصهرون .. ثم يبدأ تفكير الشاب في الانتماء وتكوين أسرة .

وهكذا يدخل الرجل منطقة الروابط العائلية والحياة الأسرية الخاصة ويمضي شهر العسل ... ثم تكر الشهور بعده ، وتنجب الأسرة أول طفل لها .. وأحياناً يكون ميلاد الطفل الأول إيذاناً بتحول في مشاعر الأب نحو زوجته .

أحياناً يحمل ميلاد الطفل الأول فرحة عارمة للأم ، وأحياناً يكون ميلاد هذه الفرحة مرتبطاً بميلاد حزن طارئ في قلب الأب ..

يقع ذلك حين تنسى الأم قوانين العدالة في توزيع اهتماماتها ، أو تهمل الأب بعد مجيء الطفل الأول .

كان لي صديق تزوج ، وكان يحب زوجته حبًّا شديداً . فقد كانا قريبين ربط الحب بينهما منذ سنوات بعيدة ، فلما توج حبه بالزواج

هدأ باله واستقرت أحواله وبدأ يشق طريقه في الحياة وابتسامته ترفرف على وجهه كالعلم .

ثم أنجب ابنه الأول .

وزادت فرحته ، فقد أنجب ولداً ، وكان يتمنى أن ينجب ولداً .

ومرت أيام وشهور ..

وفوجئت بأنه أصبح أقل ميلاً للابتسام . لاحظت أن عينيه تعكسان همًّاغريباً لم أكن أتصور أنه يمكن أن يصيبه .

وانفردت به يوماً وسألته : ما لك ؟

قال : لا شيء ..

قلت له : أنت مهموم ؟

قال : أبداً ..

قلت له : لماذا لا تريح قلبك وتحدثني بهمومك . لقد جعل الله تعالى الأصدقاء لمثل هذه المواقف .

قال وهو يخفض صوته (ولم يكن معنا في الغرفة أحد) : أخشى أن أحدثك عما أصابني فتسخر مني .

قلت له : لن أسخر منك إذا كان ما تقوله لا يستدعي السخرية ..

قال : زوجتي !

قلت : ما لها ؟

قال : لقد تغيرت تماماً !

سألته : متى تغيرت .. وكيف ؟

قال : بعد أن أنجبت ابنها الأول .

قلت له : تقصد ابنكما ؟

قال : نعم .. بعد أن أنجبته لم يعد لي وجود . احتل الطفل كل اهتمامها فجأة . احتل كل دنياها ، صارت تبتسم إذا ابتسم ، وتكتئب إذا اكتأب ، صارت تصحو إذا استيقظ وتنام إذا نام . وقد لاحظت في البداية ان اهتمامها به غير عادي ، وقلت لنفسي : إن هذا طبيعي ، فالطفل يحتاج إليها أكثر مما احتاج إليها .

سكت الرجل ونظر في وجهي محاولاً أن يعرف رد فعل كلماته في نفسي .

قلت له : هل تريد أن تقول إنها أهملتك بعد ميلاد الطفل الأول ؟

قال : تماماً .. لقد أهملتني تماماً .

لم تعد تحدثني عن نفسي ، ولا عن عملي ، ولا عن أحلامي ، ولا عن مشروعاتي . لم تعد تحدثني إلا عن الطفل . يجب أن تعرف انني أحبه أكثر مما تحبه هي ، ولكنني أحس أنني مهجور تماماً وكأنني زائد في المكان . حين تزوجنا كانت تحرص على إعداد الطعام لي ، وكانت تنتظرني إذا تأخرت ، ولم تكن تأكل وحدها مطلقاً . وكان اهتمامها بملابسي شديداً ، وكان اهتمامها بي عميقاً . ثم تبخر هذا كله فجأة .. ماذا أفعل ؟ إنني أخشى أن أحدثها في الموضوع فتسخر مني أو لا تفهمني .

استمعت إليه صامتاً ، فلما انتهى أفهمته بأن انصراف الاهتمام من الزوج إلى الطفل أمر طبيعي في الفترة الأولى بعد ميلاده . كما أفهمته أن حبها للطفل جزء من حبها الأساسي له . ونصحته أيضاً بأن يحدثها في الموضوع ويلفت انتباهها لسببين :

السبب الأول : ألا يستمر إهمالها لزوجها فيبدأ إحساسه بالوحدة والغيرة .

والسبب الثاني : هو الخوف من أن يفسد الطفل نتيجة تدليلها واهتمامها المبالغ فيه .

وهذان سببان لا نلتفت إليهما كثيراً في الحياة الزوجية ، ولكن آثارهما أحياناً تكون خطيرة .

سيدتي ... لا تدللي طفلك !

هناك فرق ناعم بين الاهتمام والغلو في الاهتمام .

وهناك فرق دقيق بين الحب والتدليل .

وتربية الأطفال فن معقد ، وما أكثر الأطفال الذين نفسدهم بالتدليل في طفولتهم . ومن الأخطاء الشائعة أن نتصور أن تدليل الطفل ليس مؤذياً . ومن الأخطاء الشائعة أن نتصور أن الحب الذي يبلغ درجة التدليل ليس ضارًّا بالطفل . لقد أثبتت الدراسات أن كثيراً من نجاحنا في الحياة الإنسانية يتوقف على الأسلوب الذي تمت به تربيتنا ونحن أطفال .

ماهو التدليل الذي يؤدي لإفساد الأطفال ؟

يأخذ هذا التدليل شكل الحب بوجهيه : أحياناً يبلغ حب الأبوين درجة القسوة المفرطة على الطفل ، فيضربانه ويؤدبانه خشية أن ينشأ مدللاً أو فاسداً . وهذه القسوة ليست في وجه من وجوهها إلا تدليلاً يؤدي لإفساد الطفل ، لأنها تشعره بالعجز وتصيبه بالخوف من اتخاذ أي قرار وتجعله دائم التردد ، دائم الحيرة ، دائم التوجس .

وهناك لون آخر من ألوان التدليل . وهو الحب الذي يأخذ شكل استجابة دائمة لكل رغباته وطلباته وأوامره ، وهذا يؤدي بالطفل إلى

أن يعتقد أن لديه قوة خارقة لا تتوفر لبقية الأطفال ، ومن ثم يتحول إلى طاغية صغير ، ويتصور فيما بعد حين يكبر أن الدنيا ستعامله بنفس الأسلوب ... فإذا لم تفعل الدنيا تحطم عند أول تجربة تصادفه .

ونحن نعرف الآن ، من تقدم الدراسات التربوية ، أن شخصية الطفل تتكون في غضون السنوات الأولى من حياته . ومن المهم كثيراً أن يخضع الطفل للنظام في هذه السنوات الأولى ... فإذا لم يخضع فلن يخضع للنظام بعد ذلك طوال حياته .

من صور التدليل أيضاً محاولة أن يكون الأطفال صورة منا ، أو محاولة تشكيلهم بنفس الصورة التي نرى أنفسنا عليها ، أو محاولة إجبارهم على أن يتصرفوا مثلنا تماماً .. معتبرين أننا الصورة المثلى للحياة الإنسانية .

وقد أدرك أحدعباقرة التاريخ الإنساني ، عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، هذه الحقيقة النفسية العميقة فأمر المسلمين ألا يجبروا أولادهم على ممارسة عاداتهم ، فقد خلقوا لزمان غير زمانهم .

وأخطر ما يؤدي إليه تدليل الطفل أنه يجعل الطفل يعيش وسط دنيا من الأوهام ، فيتصور حين يكبر انه يستطيع بابتسامة لطيفة أو تكشيرة عاضبة أن يحصل على ما يريده . وهناك أطفال يؤدي تدليلهم إلى تصورهم أن الحياة قد خلقت لتمنحهم كل ما يطلبونه أو يحتاجون إليه أو يريدونه أو يفكرون فيه ! .

ومن الأسباب التي تؤدي لتمكن هذه الفكرة من نفوس الكبار ، أن يكونوا قبل ذلك أطفالاً لا يرد لهم طلب ولا ترفض لهم رغبة . إن الطفل أحياناً يريد من والديه أشياء كثيرة ، من بينها اللعب مثلاً .

وحين يجاب الطفل إلى كل رغباته ينشأ وفي ذهنه إحساس غامض بأن كل ما يطلبه ينبغي أن يجاب على الفور . ونحن نعرف أن الدنيا لا تجيب لكل إنسان طلبه ولا تحقق لكل إنسان رغباته ..

والتدليل يؤدي إلى إفساد وجدان الطفل أيضاً ، إذ يحس الطفل بأنه ليس طفلاً عاديًا ، ويزيد إحساسه بالأهمية فيحس أنه ليس مطالباً بأن يخضع للنظام الذي يخضع له سائر الأطفال ، وحين يكبر طفل مدلل ، يتعامل مع الحياة بنفس الأسلوب الذي كان يتعامل به وهو طفل .. ويرى نفسه بالتالي غير مطالب بالخضوع للنظام أو القانون .

وترينا الحياة أطفالاً مدللين كبروا وصاروا رجالاً ووصلوا إلى مناصب رفيعة ، ثم فقدوها بسبب سلوكهم الذي يشبه سلوك الأطفال وهناك نساء بلغن الستين ولا زلن يعتقدن أن في وسعهن تحقيق رغباتهن بالبكاء .. كما كن يفعلن وهن أطفال !

لنحذر من تدليل أطفالنا ..

ولنحذر أن يتحول الحب لأطفالنا إلى سلاح ندمر به شخصيتهم حين يكبرون .

عرش الحب ... أم معركة الواجب

أحياناً يواجه الرجل موقفاً يحتم عليه الاختيار بين الحب والعمل .. أو بين الحب والواجب ..

يحدثنا «أندريه موروا» أن المرأة تتألم عندما يواجه رجلها هذا الموقف ، وتقاوم جهد استطاعتها ، ويزداد ألمها ومقاومتها إذا كان اختيار الرجل قد انصرف إلى العمل قبل أن ينصرف إلى الحب .

وهذا أمر طبيعي .

أن تغضب المرأة حين ينحاز الرجل لعمله أكثر مما ينحاز إليها ، أو حين يستغرقه عمله أكثر مما تستغرقه حياة البيت والأسرة .

ولقد اهتمت أقلام كثيرة بهذا الموضوع وكتبت فيه ، وأشارت إلى الصراع الذي يواجهه بعض الرجال حين تحاول زوجاتهم السيطرة على حياتهم تماماً .

كتب «أرنولد بنيت» مسرحية عن طيار شهير أحب امرأة ، وعذبه حبها طويلاً حتى تجمعت أحلامه كلها حول مركز واحد هو الفوز بها . وبعد مصاعب أسطورية تغلب عليها الطيار ، تزوج أخيراً من المرأة التي أحبها .

كانت زوجته امرأة غير عادية . كانت جميلة وذكية وجذابة

وصاحبة خيال خصب وكانت إرادتها قد انصرفت منذ البداية إلى السيطرة عليه بسحر لا يقاوم .

وهكذا ذهبا إلى فندق في الجبال وعاشا فيه سعيدين فترة من الزمان .

كان الفندق بعيداً لا يكاد يصله صوت الدنيا ، كما كانا وحيدين فيه مثلما كان آدم وحواء وحيدين في الجنة .

وعاشا فيما يشبه الجنة أياماً رائعة . وذات يوم ، سمع هذا الطيار أن الرقم القياسي الذي يعتز به في الطيران أكثر من أي شيء آخر ، يوشك أن يضربه واحد من منافسيه .

وتغير موقفه تماماً ، نشبت في قلبه الرغبة في الصراع والتصدي لمنافسه . وقرر أن يخرج من هذا الفندق الجبلي الذي يعيش فيه في نعيم إلى خشونة الحياة ومرعباتها .

واعترضته زوجته . تحدثت إليه طويلاً عن حبها له .. عن احساسها به . واستمع هو إليها ، ولكن ذهنه كان مشغولاً بكل مشكلات طائرته ، وبهذا المنافس الجديد الذي يوشك أن يخلعه عن عرش التفوق في عمله .

ثم أدركت زوجته أنها تخاطب رجلاً مشغول العقل بشيء آخر . اقتنعت أنه لا بد أن يذهب ، وسألته وقلبها مثقل بالحزن :

ـ ألا تستطيع أن تفهم أهمية هذه الأيام القليلة بالنسبة لي ... كامرأة تحب ؟ ألا تحس أن أهمية وجودك معي هنا تمس مستقبلي كامرأة وزوجة ، بشكل يعادل أهميةالطيران بالنسبة إليك ؟

كان يستمع إليها وهو يهز رأسه متظاهراً بأنه يفهم ، ولكنه لم يكن يفهم . وهكذا خرج الرجل وصفق الباب وراءه .

اختار عرش السيادة في عمله لا عرش السيادة في الحب... فضل معركة الواجب على معركة الحب .

ويرى كثير من المفكرين أن الرجل يفقد رجولته إذا طغت العاطفة على أهدافه ومثله ، لقد تغنى الشعراء القدامى بأساطير من استعبدهم الحب من الأبطال ولكنهم كانوا يعنون مأساة إنسانية وهم يتغنون بهذا الحب . لقد ضاع أنطونيو حين استهوته كليوباترا وخسر بعد ذلك معركته مع أوكتافيوس ، وركع شمشون عند قدمي حبيبته فضاع هو الآخر . وهكذا انتهت كل محاولات سيطرة النساء على الرجال إلى ضياع عبق الرجولة .

كيف تدخل الزوجة حياة زوجها دون أن تسيطر عليه وتضيعه ؟

بمعنى آخر : كيف تتخلل المرأة حياة رجلها دون أن يحس أن عليه أن يختار بينها وبين عمله أو واجبه ؟

إن الجواب هنا يسير :

إن الاهتمام هنا هو العصا السحرية التي تستطيع حل هذه المعادلة الصعبة . لو اهتمت المرأة بعمل زوجها لاستطاعت أن تكون في نهاية الأمر ملاذه الأخير ، وجزءاً أساسيًّا من هذا العمل .

إن هناك فرقاً بين السيطرة والمشاركة ، بين الاهتمام والتدخل .

إن الإنسان يكره السيطرة ويقاومها . ولقد حدث الله تعالى أشرف خلقه وخاتم أنبيائه بقوله سبحانه «لست عليهم بمسيطر» . أيضاً ينفر الإنسان من التدخل في حياته ، لكنه يرحب بالمشاركة والاهتمام .

وهذان طريقان للاستيلاء على قلب الإنسان ... يستوي في ذلك أن يكون رجلاً أو امرأة .

... شيء رائع اسمه الحنان

الحنان كلمة من الكلمات المدهشة في قاموس المشاعر الإنسانية . ونحن ننسب الحنان للمرأة ، فنقول : حنان الأم أو حنان الزوجة . وأحياناً ننسب الحنان للرجل فنقول : حنان الأب أو الأخ أو الصديق . وقد وردت كلمة الحنان في القرآن الكريم عن أحد أنبياء الله . وأسند الحنان فيها إلى اللهسبحانه وتعالى .

قال الله تعالى عن يحيى عليه السلام في سورة مريم «وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقيا» .

الحنان اذن صفة من صفات الأنبياء وهو صفة من صفات الرجال والنساء . ولكنه صفة شديدة الندرة ، بل هو أشد ندرة من الماس الثمين . وإذا كانت الأرض تستغرق ملايين السنين لتصنع الماس تحت ضغوط هائلة وحرارة أشد هولاً ، فان الحنان صفة لا تتوفر إلا في النفوس التي بلغت حظاً رائعاً من الرقي الإنساني .

ما هو معنى الحنان ؟

ما هي صفته ؟

ما هو مدلوله ؟

هل يختلف الحنان عن الحب ؟ هل يختلف عن الرحمة ؟ هل يختلف عن الرفق ؟ هل يختلف عن الشفقة ؟

تعاقبت هذه الأسئلة على ذهني وراحت تلح عليه ، ونهضت أبحث عن معنى الحنان في قواميس اللغة وتفسيرات المفسرين .

يقول معجم ألفاظ القرآن الحكيم – مجمع اللغة العربية – في معنى الحنان : ان الحنان هو الرحمة والعطف والرزق والبركة .

هذا تفسير المعجم لكلمة الحنان التي وردت في «سورة مريم» (وحناناً من لدنا) . ورغم صحة هذا المعنى فاني أرى للحنان معنى أشمل . الحنان صفة تتسم بالتعقيد والتركيب ، وبالتالي فان معناها يتسم بالتعقيد والثراء والتركيب ... ليس الحنان صفة بسيطة وبالتالي ليس معناها بسيطاً .

في الحنان حب ولكن الحنان ليس حباً فقط ..

أحياناً ينطوي الحب على الاثرة والرغبة في الملكية وإرادة الاستمتاع ، ولكن الحنان حب يخلو من الاثرة والملكية والاستمتاع . وفي الحنان رحمة ولكنه ليس رحمة فحسب ، ان الرحمة رقة تعتري الإنسان وتحركه إلى قضاء حاجة إنسان آخر ، ولكن للحنان معنى أوسع من مجرد الرقة ، هو رقة تنحني بالقوة على الضعف فتسنده وتقويه .

وفي الحنان فهم ولكنه ليس فهماً مجرداً ، فأحياناً ينطوي الفهم على الإدراك ، ولكن هذا الإدراك لا تستتبعه حركة نحو الفعل . ولكن الحنان فهم شامل ، وفعل مؤثر .

وفي الحنان عطف ولكنه ليس عطفاً فحسب ، أحياناً يكون العطف تأثراً بموقف ، ولكنه لا يستوجب بالضرورة تغيير هذا الموقف ، أما الحنان فهو شعور إيجابي بالعطف يؤدي بالضرورة إلى التدخل وتغيير الموقف .

الحنان إذن معنى كبير يتصل بالكون ذاته .. هو معنى كوني .

وهو في تصوري علم شمولي يشيع في نسيجه حب عميق للكائنات ورحمة بها ، وهو درجة من درجات الحب التي يؤتاها الأنبياء مباشرة من الله .

ومثلما أوتي العبد الصالح في قصة موسى علماً من لدن الله ، فكذلك أوتي يحيى عليه السلام حناناً من لدن الله .

ومن المدهش أن الحنان رغم ثرائه وتركيبه وتعقيده صفة تحملها المرأة أحياناً أكثر مما يحملها الرجل ، وتطيقها المرأة أكثر مما يطيقها الرجال رغم قوتهم .

وأعظم مجال للحنان عند المرأة هو مجال الأمومة ، ومجال الزواج . ان ما تؤديه الأم لأبنائها دون قصد أو إرادة يبلغ درجات من التضحية لا يقدر عليها رجال كثيرون رغم القصد والإرادة . وما تستطيع الزوجة أن تؤديه لزوجها في مجال الحنان هو الذي يجعل الرجال يخوضون أعظم المعارك عنفاً من أجل القيم العليا دون تضرر ، وهو الذي يجعل الرجال يحتملون أنواء الحياة ومتاعبها صابرين .

ما هو السبيل إلى كسب صفة الحنان وممارستها في الحياة ؟

إن الطرق التي تؤدي إلى الحنان كثيرة ومتعددة ، لكن أقصر مسافة بين نقطتين هي الخط المستقيم .

والطريق إلى الحنان ، وهو معنى كوني يستوجب الوقوف أولاً بين يدي خالق الكون .. بعد ذلك يرق القلب الإنساني ويعرف هذا الشيء الرائع الذي يسمونه الحنان .

حب كوني ...

من يعرفك لا ينساك .
أجل هو أنت .. أخيراً أعرف أنه أنت .
أنت الوجه الغائب الحاضر . والوجود المتنائي الموصول .
أنت نفسي التي طاردتها وطاردتني .
أنت من أعرف قبل أن أعرف .. ومن أعي قبل أن أعي .
أنت من أتلاشى وجداً فيه وبقاء .
أخيراً أستطيع أن أقولها وأستريح .
أخيراً أستطيع أن أضمك إلى نفسي وأضم أشلائي فيك ..
أخيراً أستطيع أن اتخللك وأغفو مستريحة ..
أي إحساس بالراحة ..

* * *

أخيراً تفرح أنت فأسعد أنا .. تحزن أنت فأبكي أنا .. تشف أنت فأتلاشى أنا .. ترهق أنت فأغفو أنا .. وتحلم أنت فأتمنى أنا .. تهيم أنت فأشرد أنا .. وتقلق أنت لأجن أنا .. وتتعذب أنت لأتعذب أنا .. وتشتعل أنت فأحترق أنا .

* * *

أخيراً تشتعل جمرة العذاب المقدسة في قلبي فتشع طهراً حارقاً يطرد برودة النفس وعتمة القلب وينفسح المكان لك .

لم أعد أتعذب أو أفرح إلا بك ولك ومن أجلك .

أصبحت أحزاني قطعةمن جزيرة أحزانك التي تضرب شواطئها أمواج الكون الحي الذي يتنفس .

أبحرت سفينتي على ضوء روحك وحط طائري الوحيد على مشارف نفسك ..

قالت لك الأشجار والطيور إن من لم يعرفك لم يعرف الحب ..

وأقول أنا إن من لم يعرفك لم يعرف الإنسان ..

أنت أنبل ما في الإنسان ، أطهر ما في الإنسان . أعذب ما في الإنسان . أقوى ما في الإنسان .

* * *

ولكنك بالنسبة لي لست كشفاً . فأنا أعرفك قبل أن أوجد .. تلاقينا مراراً في رحاب المجهول وفي عمق غابات الحزن .

تلاقينا منذ أول الدنيا . وتعانقت أطيافنا فرحاً ووجداً وشوقاً وتبتلاً .

كنت جزءاً منك ، ولم أزل جزءاً منك ، وسأظل جزءاً منك ..

أحس معك دائماً بمذاق اليوم الأول في الجنة ، ومذاق اليوم الأول في الدنيا .. بكارة الحياة وبدايات الأشياء .

لن أقول انني أحبك .

تبدو الكلمة قليلة ، ومحدودة ، وقاصرة ، ولا تعبر عما في نفسي . أنت شعاع يعكس الحياة في نفسي .. حلم عزيز هارب وشعاع منسي من الأمس الحنون .

أحسك .. أتمثلك .. أجسدك .. أهفو إليك .. أتداعى إليك حناناً ورغبة ، وأذوب شوقاً ورقة .

أرى بدايات الدنيا وسرها في عينيك ، وأسمع تنفس الكون حين تتنفس .

* * *

لا تحدثني عن الحلم ، أو الواقع ، أو الغد .

أنت حلمي القديم ، وواقعي اليوم ، وغدي وفنائي وخلودي معاً .

أنت روحي الساجية الساكنة الوحية الممتدة .

أحس للمرة الأولى بأنك تنظر إلي بعيني وأنني أنظر إليك بعينيك .

أحس أننا تقاربنا . تداخلنا . تمازجنا . تلاشينا . وسبحنا حتى حافة المجهول .. وعبرنا المجهول ولم نزل معاً ..

* * *

أنت لا تذكر أيام الجنة القديمة ..

أنستك مشاغلك حلمنا القديم . نسيت كيف أكلنا من الشجرة المحرمة وهبطنا إلى الأرض .

هل تذكر البداية الأولى التي كانت قبل هذه البداية .

كنت جزءاً من صدرك .

كنت ضلعاً من ضلوعك .

كنت أرقد فوق قلبك .

هذا اللقاء الحميم لم أزل أحسه . أتنفسه . أعيشه ..

* * *

روحي أنت ..

روح روحي القديم ..

* *

أم نسيت حلمنا القديم حين لم يكن هناك غيرك .. بلا دنيا ولا بشر ولا نساء . ولم يكن هناك أيضاً غيري . كنت داخلك ، جزءاً منك .

روحي أنت ...

روح روحي ...

وصايا لمقاومة الملل ..

لا يستطيع المرء أن يقرأ كلمات كتاب إذا ما ألصق الكتاب على عينيه . لا بد من مسافة كافية ليستطيع المرء أن يقرأ ويتبين الكلمات .

إن شيئاً قريباً من هذا يقع في الزواج .

بعد الزواج بفترة يبدأ إحساس الزوجين في التعرض لزائر مجهول لا شكل له ولا ملامح .

زائر اسمه الملل ..

ولقد أدرك الشعراء والفلاسفة والكتاب وعلماء النفس خطر هذا الزائر على الحياة الزوجية .. وكتب الكثيرون في الوصايا والقواعد التي يجب أن يتبعها أبناء الجنسين في وجوب مقاومة الملل .

على أن أول سؤال يجب طرحه قبل عرض الوصايا العشر لمقاومة الملل هو السؤال الذي يقول : ما هو الملل ؟

إن الملل هو الشعور بالاعتياد على مخلوق نراه دائماً في نفس الحالات التي رأيناه فيها من قبل .

أي أن الملل شعور بالاعتياد والتكرار ، وآفة الاعتياد انه يفقد المرء إحساسه بالدهشة والجدة ، كما أن التكرار يوحي بأننا أمام مشهد سبق أن رأيناه من قبل مما تعزف عنه النفس ... ولا أحد فينا يحب أن يرى

ما سبق أن رآه عشرات المرات . هذا هو تعريف الملل المبدئي

لنسأل سؤالاً آخر : هل الإنسان مخلوق ثابت (ستاتيكي) أم مخلوق متحرك (ديناميكي) ؟ .

إن الإنسان مخلوق متحرك ، بل إن حركته لا تتوقف عن الاستمرار فكيف يولد الملل إذن ؟

هنا نحب أن نشير إلى أن الملل لا يولد من طبيعة الحياة الزوجية نفسها ، وإنما يولد من تصرفات الزوجين .

وهذا معناه أن علينا أن نبحث عن وصايا مقاومة الملل في تصرفاتنا بدلاً من الهزيمة أمام هذا الشعور .

ماذا نفعل إذن لنمنح الحياة هذا المذاق المتجدد الذي يجعل الملل ينصرف يائساً من حياتنا ؟

إن الوصية الأولى هي الاحترام ، ويعني الاحترام ان رفع الكلفة بين الزوجين أمر ضار للغاية . إن الحب يستمد بقاءه عادة من هذه الهالة التي يحسها كل مخلوق نحو الآخر . ورفع الكلفة بين الزوجين والمزاح الذي لا يعرف حدود التوقير يمكن أن ينزع قشرة الحب فيفسد الحب تماماً . كما ننزع قشرة الثمرة عنها ونتركها .

ليس معنى هذا أن نفقد روح المرح . إن فقدان روح المرح يجعل النكد يتسلل إلى الحياة الزوجية . وليس كالنكد أمر يبعث على الملل ، لأن الإنسان يمل الأحزان عادة ويميل إلى الهرب منها .

أعرف أزواجاً يعيشون في سعادة حقيقية بسبب روح المرح التي تسود بينهما ، وهي روح لا تنفي الاحترام بل تؤكده .

وأجمل ما في المرح قدرة الشخص على السخرية من نفسه ، لا من

رفيقه الآخر . إن سخرية الزوج من زوجته أو سخرية الزوجة من زوجها أمر سهل ، وهو أمر سهل ولكنه مدمر . وأصعب منه أن يسخر الإنسان من نفسه ، ولنعرف أن من مراتب الرقي الإنساني أن يسخر الإنسان من نفسه .

وما أكثر المنازعات التي يمكن لروح المرح أن تحلها عن طريق السخرية من النفس لا من الغير .

من وصايا مقاومة الملل تجنب قلة الاهتمام ، وعدم الثقة ، والحرص على إدراك ما في معظم الخلافات الزوجية من سخافة . ولو تأملنا الأسباب التي تنشأ منها معظم المنازعات التي تؤدي إلى الفتور .. فالملل ، لأدركنا أنها تستند لأسباب تافهة .

من وصايا مقاومة الملل الحرص على تجديد الحياة وبلورة المشاعر كل فترة زمنية .

وهذا يعني أن يبتعد الزوجان قليلاً .. كأن يسافر كل واحد منهما إلى أهله ، ثم يتبادلان الرسائل .

ولعل أهم وصية لعلاج الملل هي التعبير عن المشاعر .

إن أقسى ما يفسد الحياة الزوجية ويفتح فيها ثغرة للملل أن يعتقد كل زوج أنه قد عبر عن مشاعره في الحب بمجرد الزواج ، ولم يعد محتاجاً بالتالي لأن يعبر عن مشاعره مرة أخرى .

إن توقف التعبير عن المشاعر هو الباب المفتوح على الملل .

حوار لا معقول في موضوع مستحيل

صفق الباشا بيديه مرتين وصرخ :

ـ أين الجواري ؟

وهرعت من غرفات القصر عشرات الجواري وانحنين في أدب ، عاد الباشا يصفق بيديه ثلاث مرات فاصطف الآلاتية والموسيقيون على الفور .

ثم إن الباشا صفق بيديه مرة واحدة فبدأ العزف والغناء .

رقصت الجواري حتى تمايل الباشا من الطرب . وغنت إحداهن حتى أحس الباشا أن رأسه يموج بالغناء وأطلق البخور فزاد العبق في المكان حتى تمايلت أشجار الحديقة ورقصت العصافير النائمة .

وظل الرقص يدور حتى الصباح ..

أيضاً لم ينقطع الغناء حتى الصباح ..

ثم أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الغناء المباح .

أي روعة ؟ أليست هذه حياة مدهشة ؟

* * *

انتهى الزائر الغربي من كلامه وقال :

ـ كم أتمنى أن أعيش في الشرق ! !

أضحكني كلامه وقلت له : أنت رجل أعمال شهير ، والمفروض أنك تعرف أشياء كثيرة نجهلها نحن .. ولكنك يا سيدي تتصور أن الشرق هو ألف ليلة وليلة .. وهذا يشبه تصور أحد القرويين المصريين حين يذهب إلى باريس ..

فيظن أن كل النساء سوف يقعن في حبه من النظرة الأولى . أليست باريس مدينة النور والحب .. إن أعمدة النور تملأ الشوارع ، والحب ينتظر هذا القادم من القرية البعيدة .

ماذا تقول عن هذا القروي ؟

ضحك رجل الأعمال وقال : أقول عنه ما تقوله أنت عني .

جاريته في الضحك وعدت أقول له : لعل فكرة الجواري تستهويك حتى ببعدها التاريخي القديم ؟

قال : نعم .. أعترف انها تستهويني .. إن فكرة الجواري والحريم فكرة طيبة .

قلت له : هي فكرة طيبة على مستوى حكايات «ألف ليلة وليلة» . وإلا فمن أين كان المؤلف المجهول أو المؤلفون المجهولون يأتون بكل أحداث الحكايات ؟ لكن تصور أن لديك قصراً يمتلئ بالجواري .. هل تعتقد أنك تستطيع احتمالهن ؟

قال رجل الأعمال الغربي : مادياً ؟ لا أظن أنني أستطيع احتمالهن .

سألته : رغم أنك مليونير ؟

قال : رغم أنني مليونير !

قلت له : لست أسألك عن قدرتك من الناحية المادية .. إنما أسألك عن قدرتك من الناحية النفسية ..

قال ضاحكاً : لم أفكر في ذلك .

قلت له جاداً : هذه هي المشكلة في تصوري . إن الإنسان يحتمل امرأة واحدة بعد بذل مجهود عنيف . ولكن تصور مئات النساء معاً ورجلاً واحداً ! انني أشك كثيراً في قدرة أي إنسان على احتمال مجموعة من الجنس الآخر . ان الرجل يمكن أن يصيبه الجنون . تصور ثرثرة عشرات النساء ، وعراك مئات النساء ، والمشاكل التي يمكن إثارتها من مئات النساء ؟

فكر المليونير الغربي قليلاً ثم سأل بجدية واهتمام :

ـ كيف استطاع الباشوات والسلاطين القدامى اذن أن يحتفظوا بكل هذا العدد من الجواري دون أن يصيبهم الجنون ؟

قلت له : هذا هو السؤال المعقول منذ بداية الجلسة .. ومعذرة لصراحتي ولكنني سأقول لك كيف . لقد كان هؤلاء السلاطين والباشوات عباقرة . وكانوا إلى جوار عبقريتهم متفرغين تماماً .. أي أنك تحتاج إلى العبقرية والتفرغ .

هل أنت متفرغ ؟ هل أنت عبقري ؟

* *

لم يجب رجل الأعمال الغربي وانهمك في تناول طعامه ولزم الصمت طوال الجلسة .

قليل من الغيرة ... يصلح المعدة !

يتصور الرجل أن الحب حرب يكسبها بالزواج . وبالتالي لا يعود من واجباته بذل مجهود آخر .. وتبذل المرأة قبل الزواج جهوداً طيبة ، ثم تهدأ إذا تزوجت وتتصور أنها قد أدت كل واجباتها بالزواج .

وحقيقة الزواج أنه ليس حرباً تم كسبها . كما أنه ليس اداء نهائياً لواجب وإنما هو بداية لحياة جديدة .. وهي حياة يشاركنا فيها إنسان آخر . والمشاركة تعني العطاء . وتعني احتمال الأخطاء والقدرة على العفو . وبغير هذين العنصرين لا ينجح الزواج ..

والغريب أن كل زوج من الزوجين يبدي في الفترة السابقة على الزواج ألواناً من العطاء الرائع . فإذا تم الزواج ومرت عليه الأيام ، بدأ كل واحد ينتظر أن يقوم الطرف الآخر بالعطاء .

وكل زواج هو حالة خاصة لها ظروفها وخلفياتها وشخصية أبطالها ، ومثلما تختلف بصمات أصابع الإنسان عن غيره من البشر ، فكذلك تختلف شخصية الإنسان وتختلف ردود أفعاله وتختلف قدرته على العطاء ..

ورغم هذه الحقيقة فإن هناك سمات عامة للزواج .. وهناك أشياء إذا نقصت كميتها في الزواج صار الزواج غير مقبول ، وهناك أشياء

إذا زادت كميتها صار الزواج غير محتمل ..

أتحدث عن الملح ..

أقصد الغيرة ..

إن للغيرة نسبة معينة يجب أن توضع بحساب كما يوضع الملح في الطعام ، فإذا زادت النسبة كنا أمام عدم احترام أو عدم ثقة .. وهذا يدمر الزواج ..

أيضاً يقع نفس الأمر إذا قلت نسبة الغيرة أو انعدمت ، نكون هنا أمام قلة اكتراث .. وهذا عنصر يفسد الزواج ..

أذكر مسرحية لتوفيق الحكيم عن الغيرة ، كان لها أربعة أبطال .. رجل متزوج من سيدة تغار إلى درجة لا تحتمل .. ورجل متزوج من سيدة لا تغار مهما يحدث ..

أما السيدة التي تغار بسبب وبلا سبب فكانت ترى أحلاماً في نومها ، وكانت ترى في هذه الأحلام أن زوجها على علاقة بفنانة ما ، رأت صورتها في إحدى المجلات .

وتبدأ هذه الزوجة في فتح محضر تحقيق لزوجها : أين كنت ؟ لماذا تأخرت ؟ هل تعرف فلانة ؟ هل تقسم أنك لا تعرفها ؟ هل رأيتها ؟ إذا قال إنه رآها في فيلم أفهمته الزوجة انها لا تسأله عن الفيلم ، إنما تسأله عن رؤية حقيقية في الواقع ..

ويستمر التحقيق ويستمر الاستجواب والزوج يشد شعره ويكاد يجن . تشك زوجته فيه ، وهو يسألها طيلة الوقت من أين جاءتها هذه الظنون الغريبة ، وأخيراً تعترف له انها رأت حلماً ..

ويضحك الزوج بسعادة فائقة ويحس أن الكابوس يوشك أن

ينتهي .. فالأمر كله أضغاث أحلام ، ولكن الزوجة تقسم أن أحلامها لا تنزل الأرض أبداً ، انها تؤكد على أن أحلامها لا تكذب أبداً ..

ووسط هذا الجحيم يعيش الزوج الأول ..

أما الزوج الثاني فيعيش في جحيم من لون آخر .. ان زوجته تبدي قلة اكتراث به إلى الحد الذي يخنقه تماماً ، انه يحاول إثارة غيرتها باختراع قصص عن علاقات وهمية بنساء أخريات ، ولكنها تبتسم له ولا تتحرك ، وكلما زاد هو من تأليف قصص خيانته لها زادت هي من قلة اكتراثها بما يحدث ، ويحاول هذا الزوج عبثاً أن يحرك مشاعر زوجته أو يوقظ غيرتها بآلاف الوسائل ولكنه لا ينجح ..

ويشكو هذا الزوج الذي يعيش في جحيم من قلة الاكتراث إلى الزوج الآخر الذي يعيش في جحيم من عدم الثقة .. ويرى كل واحد منهما أن الزوج الآخر يعيش في جنة يفسدها بالبطر ..

وتستمر المسرحية ..

هذه المسرحية تكاد تحدثنا عن شيء دقيق للغاية .. وهي تريد أن تقول إن قلة الاكتراث النابعة من انعدام الغيرة جحيم .. كما أن عدم الثقة النابع من كثرة الغيرة جحيم ..

وليس هناك ما يحطم معنويات الرجل أو المرأة مثل قلة الاكتراث أو عدم الثقة ..

وهما طرفا نقيض .. ولكنهما يحدثان نفس التأثير المدمر في الزواج

قال : لا أريد إمرأة تعارضني !

كان يبحث عن زوجة ..

ورغم ثقافته وعصريته فقد فاجأنا بالمواصفات التي يريدها في زوجته . فقال : أريد امرأة لا تقرأ ولا تكتب ..

أريد أمرأة تجهل كل شيء ولا تعرف إلا خدمة الرجل والبيت ... امرأة لا تقول غير كلمتين : نعم وحاضر ..

سأله أحد أصدقائه : هل تبحث عن زوجة أم خادمة ؟

قال : أبحث عن زوجة ! .

قال صديقه : لكنك تقدم أوصاف خادمة ، بل إن العصر لم يعد يحتمل وجود خدم لا يقرأون ولا يكتبون ..

قال الباحث عن الزواج :إنني لا أمزح .

سألته : لماذا تريد زوجة جاهلة ؟

قال : لا أريد امرأة تعارضني . إن لي مجموعة من الأصدقاء الذين تزوجوا من نساء عاملات مثقفات .. ولي مجموعة من الأصدقاء الذين تزوجوا من نساء متعلمات . ومعظم هذه القصص قد انتهت إلى وضع لا أظنني أرضاه .

قلنا له : كيف ؟

راح يضرب لنا أمثلة عما يقع لأصدقائه الذين تزوجوا من نساء متعلمات أو مثقفات ، حدثنا أن الرجل يقول لزوجته شيئاً فتعارضه ، حدثنا أنه عاصر قصصاً كانت الزوجة فيها تستمر في معارضة زوجها حتى ينتهي الأمر بالخصام ، وحدثنا عن قصص لم تكن الزوجة فيها تقنع بالأسباب التي قدمها الزوج وتقدم أسباباً تختلف ..

وكان يتكلم مثل طاغية لا يطيق أن يعارضه أحد

انتهى من كلامه ، فسألته : هل تريد امرأة تطاوعك ؟

قال : أريد امرأة تطيعني .. لا أريد أن أتزوج المعارضة ..

قلت له : لقد فهمت ما تريد .. أنت تريد زوجة مثل جدتك أو أمك !

قال : نعم . لقد فهمتني .

قلت له : أتسمع لي إذن وسوف أحدثك عن أمرين أولهما بسيط ولكن الثاني عجيب . أنت رجل شرقي تريد امرأة تطيعك .. وهذا من حقك . ولكنك تبحث عن صورة الجدة أو الأم .. وهذا يستوجب أن تسبح ضد تيار الزمن خمسين عاماً إلى الوراء لتتزوج امرأة مثل أمك أو مثل جدتك .. فهل تستطيع أن تسبح ضد تيار الزمن خمسين عاماً إلى الوراء ؟ هل تستطيع أن تولد في عصر قديم ؟

قال : لا أستطيع ..

قلت له : بل تستطيع .. سنفترض جدلاً أنك استطعت .. هذا أمر سهل .. ألم أقل لك إنني سأحدثك عن أمرين أولهما بسيط والثاني عجيب ؟

إن السباحة ضد تيار الزمن سهلة .. سنفترضها كما يفترض

الرياضيون أن الخط المستقيم هو أقصر الطرق بين نقطتين .. استمع الآن لأمر عجيب .. لقد زوجناك من امرأة مثل جدتك أو والدتك .. امرأة لا تقرأ ولا تكتب ولا تعرف عن الدنيا شيئاً . فهل تعتقد أن هذه المرأة لن تعارضك .. إنها لن تعارضك بشجاعة المرأة المتعلمة ، هذا صحيح . إنها ستقول لك «نعم» دائماً و «حاضر» دائماً . ولكن يا صديقي المخدوع سوف تكتشف أنها تنفذ ما تريده هي لا ما تريده أنت .

لقد كان أجدادنا يشخطون في بيوتهم فلا يسمعون غير نعم وحاضر هذا على المستوى النظري . أما الواقع العملي فكان عكس ما يتصورونه . كانت النساء دائماً ينفذن ما يردنه .

كان التحايل على التنفيذ يتم تحت مظلة الطاعة المطلقة والموافقة !

كانت المرأة تقول لزوجها : خادمتك ورهن أمرك .

ولكنها في الحقيقة كانت تستبد برأيها .. وليس هناك أقسى من استبداد الجهل أو طغيان أو سيطرة النساء تحت وهم الانقياد والخضوع .

أيهما إذن أفضل .. المشاركة في الحياة أو خداع الطغيان ونعومته ؟

ليس هناك امرأة فاسدة ... هناك رجل مُفسد !

يقول المثل الفرنسي «ليس هناك امرأة فاسدة .. هناك رجل مفسد» لم أكن أعرف هذا المثل قبل ذلك ، ولكنني كنت أحسه إحساساً مبهماً غائماً تمثل في رفضي لهذه الأحكام القاطعة التعميمية التي تطلق على المرأة .

وأدبنا العربي ـ للأسف ـ يزخر بهذه الأحكام التعميمية .. ليس الأدب العربي وحده وإنما الأدب العالمي أيضاً .

يقول الشاعر :

إن النساء شياطين خلقن لنا — أعوذ بالله من كيد الشياطين
ومن بهن رماه العشق مبتلياً — قد ضيع الحزم في دنيا وفي دين

ورد هذان البيتان من الشعر في حكايتين مصريتين متأخرتين من حكايات «ألف ليلة وليلة» .

ولقد كتبت فيبكه فالتز تقول إن أول بيت من الشعر يكاد يطابق في معناه قولاً للأديب البافاري وأمين البلاد الذي عاش من سنة ١٥٦٠ إلى سنة ١٦٢٠ .. يقول الأديب الألماني البرتينس «المرأة أداة طيعة وآلة في يد الشيطان ، بها جلب إلى العالم كل الشرور والآثام ، وبها

جعل كثيراً من عقلاء الرجال وأتقيائهم مجانين مخطئين» . وقريب من هذا ما يذكره كتاب «ألف ليلة وليلة» من حكايات عن غفلة النساء وسخافة عقولهن وسوء تدبيرهن .

والمعلوم أن «ألف ليلة وليلة» مجموعة قصص من الهند وفارس والعراق والشام ومصر وتركيا . أي أن هذا الرأي الوارد بالنسبة للمرأة لم يكن رأياً مصرياً ، وإنما كان رأياً شرقياً وهو للأسف يلجأ للتعميم .

كنت أحس حين أقرأ هذه الأحكام التي تلجأ للتعميم انني أمام حكم عاطفي على تجربة خاصة ، وليس حكماً عاماً على المرأة .. ومن هنا أحسست حين قرأت المثل الفرنسي أن فيه قدراً من الصواب أكبر مما في هذه الآراء التي تعادي المرأة أو تتهمها بأنها أصل الشرور .

وفي المثل الفرنسي تعميم وتحديد ..

والجزء المتصل بالتعميم فيه جزء خاطئ ولا ريب .. أما الجزء الذي يحدد فربما كان الصواب معه أكثر .

إن قول المثل «ليست هناك امرأة فاسدة» هو تعميم .. ولكن تحديد هذا التعميم بالرجل المفسد ينقل المثل إلى درجة من الاحترام التي تجعل له قبولاً في دنيا المنطق .

لنتأمل معاً قصص المآسي الإنسانية التي تتمثل في غواية النساء .. سنكتشف دائماً أو في معظم الظروف أن هناك رجلاً وراء المرأة التي غوت .

والمرأة بتركيبها الإنساني الذي خلقه الله لها تميل إلى الفضيلة والاستقرار والقرار ، بينما يميل الرجل عادة إلى التنوع والتجديد .

وبسبب فطرة المرأة التي لا تقبل إلا رجلاً واحداً ، وبسبب فطرة

الرجل القابلة للتعدد، أباح الإسلام تعدد الزوجات وحرم تعدد الأزواج.

والأصل في المرأة هو حاجتها إلى رجل واحد .. والمرأة حين تحب تأنف أن تنظر لغير من تحبه نظرتها لمن تحبه. وهي تقشعر حين يلمسها رجل غير الرجل الذي اختارته.

لننظر في تصرفاتنا كرجال فنرى فيها سر غواية النساء .. وما أكثر الرجال الذين دفعوا النساء إلى الغواية .. حين تنازلوا طواعية أو كرهاً عن قيم الرجولة والمسؤولية.

ظاهرة الزواج في المرأة

الآداب والفنون هما المرآة التي تنعكس فيهما صورة المجتمع ، ولو تأملنا أدب أي أمة من الأمم فسوف نجد أن هذا الأدب يعكس لون الثقافة والبيئة التي تعيشها الأمة ، وسنرى انه يكشف أفكارها ويعبر عن طموحاتها وأحلامها بشكل ما .

ومن المدهش أن الزواج في الشرق ينعكس في الآداب والفنون بصورة ليست هي صورته ..

مثلاً تشيع في أحاديث الطبقة المتوسطة ، أحياناً ، أن الزواج نظام فاشل ، وتشيع في فنوننا عبارات تؤكد هذه الفكرة إلى حد ما ، فيقول الممثل في الفيلم : «انني أديت واجبي في المصلحة كأنني زوج» ، أي بغير حماس ، كما أن النكت التي تظهر عن الحماة في ساحة الفكاهة أكثر من النكت التي تظهر عن غيرها .

وقد أسهمت الفنون والآداب في غرس هذه الفكرة وتأصيلها بحيث أصبحت من المسلمات ..

وهذه الفكرة مستوردة من ثقافة غربية ومناخ يختلف عن مناخنا الاجتماعي كل الاختلاف . وقد حملت هذه الفكرة أمواج المدنية

الغربية بين ما حملته وألقته علينا .

وانسقنا نحن إلى الفخ ووقعنا فيه ..

وأحد أسباب المشاكل الزوجية التي نعيشها في الشرق أننا ننظر إلى الزواج بمنظار غربي .. فنراه مؤسسة فاشلة ونراه باعثاً على الملل ، و بالتالي يقودنا هذا إلى مزيد من الأخطاء التي تزيد الطين بلة أو تزيد البلة طيناً ..

ولقد كان إغفالنا للمنظور الإسلامي للزواج أحد الأسباب الرئيسية في كم التعاسة الذي نحسه ..

إن الزواج في الغرب يبنى على الحب والتجربة والخطأ .. وتكرار التجربة .. وإعادة تكرارها لو لزم الأمر ..

وفي الغرب يدعون إلى الحرية الإنسانية بكل ألوانها ، إلى الحد الذي صارت فيه قيم العذرية مصطلحات ديناصورية انقرضت .

أما الإسلام فلا يقيم الزواج على الحب ، وإنما يقوم بتعريفه تعريفاً مدهشاً يحدد كل جوانبه وجوهره وأعماقه .. تقول الآية القرآنية في ظاهرة الزواج «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة» . (الروم – ٢١) .

ونلاحظ على النص القرآني أنه يبدأ الموضوع باشارة موحية تلفت انتباه الرجل إلى أن المرأة جزء من نفسه .. لقد خلقت المرأة من الرجل كما يقول الكتاب الحكيم .

هذه إشارة إلى أن الإنسان حين يتزوج يكمل نفسه .. ويتكامل . قبل الزواج يعتبر الرجل ناقصاً .. فإذا تزوج اكتمل ..

ويستمر النص القرآني فيحدد لنا هدف الزواج بقوله انه هو السكن ،

ولو تأملنا الإيحاءات الندية للسكن بكل ما فيه من دفء وراحة وأمن وحرية ، لو فعلنا هذا لأدركنا الرؤيا الخاصة للإسلام في الزواج ، وهي رؤيا يختمها النص القرآني ببيان روابطها «وجعل بينكم مودة ورحمة» .

أي أن الزواج في الإسلام يقوم على المودة والرحمة ، كما أن هدف الزواج هو السكن ، كما أن المرأة جزء مخلوق من الرجل .. جزء يكمل الرجل .

وهكذا تناول الزواج الموضوع .. والهدف .. والروابط .. وبهذا التناول المتكامل ينهض الزواج عند المسلمين على أساس الاحترام والحنو .. لا على أساس الحب وحده ..

وقد استخدم النص القرآني تعبير «المودة والرحمة» ، وهما درجتان راقيتان من درجات الحب الإنساني .. إن لم تكونا أرقى درجتين فيه ...

وهكذا تلفت الشريعة الإسلامية أتباعها إلى وجوب التعامل برقي في الزواج .. وتلفتهم إلى أن الزواج علاقة راقية ، والسخرية منها أو التعامل فيها بسوقية يعرضها للهلاك ..

وقد جاء الإسلام بهذه الرؤيا في نفس الوقت الذي انعقد فيه مؤتمر في بلاد الغال (فرنسا) وناقش المؤتمر وضع المرأة ، وكان السؤالان هما :

١ - هل المرأة إنسان له روح يسري عليه الخلود ، أم مجرد حيوان ليس له روح ؟

٢ - هل يجب أن يستمر منعها من الكلام والضحك بصفتها أحبولة الشيطان أم يسمح لها ببعض حرية الكلام والضحك ؟

ولأن المؤتمر كان متقدماً على عصره فقد أفتى بأن المرأة إنسان وليست حيواناً ، ولكنه أبدى تحفظاً هاماً فقال إنها انسان خلق لخدمة الرجل ..

قارن بين هذه الرؤيا ورؤيا الإسلام ..

قارن بين خدمة الرجل وتكملة الرجل ..

قال لها : سامحيني ! ... فلم تفهم

جاءنى صوتها مرتعداً متهدجاً فى التليفون .. كان الصوت يرتعش ويختنق فى محاولة يائسة لصد موجة من البكاء .

ثم انهار الصوت على الخط الآخر وأغلق التليفون ..

ظللت أناديها باسمها لحظات ثم وضعت السماعة ..

كانت هذه زوجة صديق حميم من اصدقائي .. صديق بمثابة الأخ ، أما هي فكانت مربيتي ..

وقد فهمت من صوتها المرتعد المخنوق بالبكاء انها تريد الطلاق من زوجها .. لم تقل لي لماذا ؟ ولا فهمت منها لماذا ؟

وأدهشني الأمر دهشة بالغة ، فقد كانت الحياة الزوجية بينهما تمضي هادئة رخاء كأن سفينة تشق موج البحر في بداية صيف جميل وسنان .. ثم ها هي العواصف تندلع من قاع الهدوء وتقلب الموقف رأساً على عقب .

نزلت أقصد بيتهما ..

ضغطت جرس الباب ففتحت لي .. كانت عيناها محمرتين من أثر البكاء .. ولم تكد تراني حتى انفجرت بالنحيب .

دخلت البيت صامتاً وقلت لها : إذا ظللت تبكين فلن أفهم شيئاً ،

ولن تحل المشكلة حتى لو ظللت على هذه الحال ساعات !

مسحت دموعها وحدثتني عما حدث ..

لقد اكتشفت أن زوجها يخونها ..

سألتها كيف اكتشفت ، فراحت تسوق الأدلة والبراهين التي تؤكد من وجهة نظرها انه رجل خائن .

استمعت إليها صابراً ثم قلت :

ـ حتى الآن ليس هناك دليل قاطع على أن الرجل قد فعل ما تتصورين انه فعل .

قالت بهدوء لا يخلو من قسوة : أنا على يقين من انه ليس مخلصاً لي .. لقد اعترف ..

قلت لها : هل تحدثتما معاً في الموضوع ؟

قالت : نعم .

سألتها : ماذا قال حين واجهته ؟

قالت : قال لي سامحيني .

قلت لها : ماذا كان ردك ؟

عادت تنفجر بالبكاء وهي تقول : أبداً .. لن أسامح !

تركتها تهدأ وانشأت أتحدث ..

قلت لها : امسحي دموعك أولاً .. ان المرأة ليست هي المخلوق الذي يستطيع أن يبكي ، إنما هي المخلوق الذي يستطيع أن يصفح .. أنت تعرفين معنى كونك امرأة .. ربما جرحتك هذه الصراحة .. ولكنني أكرر .. أنت لا تفهمين حقيقتك ..

مسحت دموعها ونظرت في وجهي بجمود ..

قالت : أنا قريبتك وهو صديقك .. كيف تنحاز له ضدي .

قلت لها مبتسماً : أنا منحاز معك ولكنني أحدثك بصدق .. أين وثيقة زواجكما .. أريد أن أرى شيئاً فيها ؟

قالت بدهشة : ماذا تريد أن ترى فيها ؟

قلت لها : سوف أبحث أمام اسم زوجك عن جنسه .. إذا كان قد كتب في الوثيقة انه ملاك .. صدقنا دعواك في طلب الطلاق ! وان كان قد كتب انه رجل فالرجل يخطئ ويصيب .. والمرأة حقاً هي التي تعفو وتصفح .

سكتت محنقة وحدقت في وجهي .. وعدت أقول لها :

ـ اسمعي .. إن زوجك انسان .. آدمي من البشر .. وقد أخطأ الإنسان في حق الله عز وجل .. وعفا الله تعالى عن الإنسان .. لماذا لا تحاولين التخلق بصفة من صفات الله عز وجل : صفة العفو ؟ ان المرأة ليست هي الزوجة أو الحبيبة فقط .. المرأة هي الأم والأخت .. ضعي نفسك مكان أمه أو أخته وانظري لما حدث نظرة جديدة .. ألا تصفحين عن ابنك أو شقيقك .. ان أجمل ما في المرأة قدرتها على الصفح .. وهي في ذات الوقت قدرة على الفهم .

هل يحتاج الحب إلى موهبة ؟

هل يحتاج الحب إلى موهبة ؟

هل يستلزم كفاءة من لون معين ؟

هل يقتضي من الإنسان عناء وتجربة ومعرفة وذوقاً ؟

هل يستطيع أي إنسان أن يحب ؟

إن معظم الناس يتصور أن الحب أسهل من احتساء الماء البارد في قيظ الصيف .

ومعظم الناس يعتقد أن الحب لا يحتاج إلى تعليم ، ولا قدوة ، ولا فهم ، ولا إيضاح . والناس على خطأ في ذلك ...

إن الغريزة هي التي لا تحتاج إلى تعليم ، ولا موهبة ، ولا عناء ، ولا تجربة .. ان العصافير تتزاوج دون أن يعلمها ذلك أحد ، والحيوان يمارس الحب في فصول التزاوج دون أن يعلمه ذلك أحد .

وما ينطبق على الغريزة لا ينطبق على الحب ، لأن الحب في جوهره ليس هو الغريزة .

الحب عمل روحي جوار ماديته .. وهو عناء روحي جوار سهولته .. يبدو لنا الحب سهلاً ، ولكنه في حقيقة أمره صعب .

يشبه الحب في الحياة الإنسانية جبل الجليد العائم . نحن لا نرى

من الجبل إلا خمسه ، أما أربعة أخماسه فترقد تحت السطح المائي المثلج ، ومعظم الناس لا يعرف من الحب إلا ما يراه منه ... هذا الخمس الطافي على سطح المياه ..

أما بقية الحب فتظل خافية عن عين الإنسان وعن إدراكه .. واذن تجيب عن السؤال :

هل يحتاج الحب إلى موهبة وكفاءة وعناء وذوق ومعرفة ؟

نعم ...

يحتاج الحب لهذا كله ...

وهذا هو الفرق بين الإنسان والحيوان ..

نحن نقول إن الإنسان أرقى من الحيوان .. وهذا هو بالضبط الفرق بين الحب والغريزة .

الحب عمل إنساني .. أما الغريزة فمسألة توجد في الحيوان والإنسان على السواء . وإذا كانت الغريزة لا تحتاج إلى تعلم ، فان الحب يحتاج إلى تعلم .

كيف يتعلم الإنسان الحب ؟

هذا السؤال يمكن إحلاله بالسؤال التالي :

كيف يتعلم الإنسان الرقي ؟

ذلك أن تعلم الإنسان للرقي يعني أنه يتعلم الحب ..

كيف يتعلم الإنسان الرقي ؟

إن المعرفة طريق إلى الرقي .. والفهم طريق إلى الرقي .. والحنو طريق إلى الرقي .. والصفح طريق إلى الرقي ..

والإحساس بالجمال طريق إلى الرقي ...

ولكن أسرع الطرق إلى الرقي هي الإيمان بالله .. تحت خيمة الإيمان يتعلم الإنسان حقيقة الرقي ويتعلم جوهر الحب .. وجوهر الحب هو العطاء ..

وعطاء الله هو السابق أبداً ...

لقد ذكرنا الله قبل أن نذكره ، وعرفنا قبل أن نعرفه . وأحبنا قبل أن نحبه ، وطلبنا قبل أن نطلبه ... والله يعفو عنا ويصفح عن اساءاتنا ويغفر زلاتنا ويرحم عثراتنا ويقبل توبة التائبين .

من الرقي اذن أن ننظر إلى السماء إذا أردنا أن نحب أو نتعلم الحب

الزواج .. إعلان عن الحقوق الإنسانية للحب

يتصور البعض أن الزواج بمثابةإعلان عن الحقوق الإنسانية للحب .

وهذا صحيح إلى حد ما . ولكن إعلان الحقوق ليس بالضرورة وعداً بممارستها وليس دليلاً على أعمالها .

ومشكلة الزواج في الشرق عموماً تكاد تتمثل في الآتي :

يعتقد كل من الرجل والمرأة انه قد فعل كل ما يمكن فعله بالنسبة للحب ، أي أنه أنهى مهمته واستراح ولم يعد عليه أن يفعل شيئاً آخر بعد الزواج .

وضمان الأشياء عنصر مميز من قسمات الزواج ، ولكنه ليس عنصراً معروفاً في الحب .

إن الحب كالحرب .. يجب أن لا تكف فيهما عن بذل المجهود ، ولا ضمان لشيء في الحب أو الحرب ..

ولكن الزواج مضمون . فقد ربطنا الشيخ أو القسيس أو الكاهن برباط مقدس ، وضمن لنا هذا الرباط كل شيء ... وبالتالي فقد انتهت مهمتنا ، ولم يعد علينا أن نكسب الطرف الآخر .

وحين نتوقف عن كسب الأشخاص يكون معنى ذلك اننا بدأنا نخسرهم .

أول امراض الزواج ان يتصور الزوج أو الزوجة ان الزواج نهاية ، والصحيح أنه بداية .

هو بداية دخول الحب فى شكل جديد من أشكال الاتحاد الانسانى .

وفى الحب يحرص كل طرف من الطرفين المتحابين على اسعاد زميله ، أما فى الزواج فيحرص كل واحد من الزوجين على ارضاء نفسه ، أو ينتظر من الآخر أن يكون هو البادئ بارضائه .

وفى الحب لا نهمل الاشياء الصغيرة عادة ، انما نحس انها أهم من أى شيء آخر . اننا نتذكر عيد ميلادها مثلا ، ونتذكر اليوم الذى التقينا فيه ، ونتذكر أول مرة تصارحنا فيها بالحب ، ونحتفل بكل مناسبة من هذه المناسبات .

وفى الزواج ننسى عيد ميلاد الزوجة وننسى اليوم الذى التقينا فيه ، وننسى اسمها أحياناً .. وتصيبنا الدهشة حين تغضب لأننا نسينا هذا كله .

بل ان دهشتنا تثور حين تبدأ الزوجة فى الشكوى من قلة الاهتمام .

إن الرد الجاهز عادة على هذه الشكوى هو الجملة التالية :

ـ ألم نتزوج ؟

ومنطق الرجل عادة يقوم على احساسه الداخلي بالتضحية لأنه تزوج ، وهي تضحية كبرى تعفيه من تذكر الأشياء الصغيرة . وأحياناً يكون هذا منطق المرأة .

وهذا أول خطأ قاتل في الزواج .

ويصاحب هذا الخطأ احساس بالاعتياد يرفع الكلفة . ورفع الكلفة ليس من نسيج الحب ، ولكنه جزء من قماشة الزواج وهذا هو الخطأ الثاني في الزواج .

ينبغي أن يظل لكل من الزوجين عالمه الخاص الذي لا ينظر فيه الطرف الآخر .. وليكن لنا معاً عالمنا المشترك ، ولكن هناك أشياء يجب ألا يقحم أحد أنفه فيها .. ويجب أن تبقى غرفة مغلقة في القلب مثل الغرفة المغلقة في حكايات ألف ليلة وليلة .

غرفة يمتنع الدخول فيها ، إلا ، بإذن ودعوة سابقة من صاحبها .

ومن أخطاء الزواج أيضاً محاولة كل زوج تطويع الزوج الآخر لعاداته وطرائقه وأفكاره ونظرته للأمور ، بحيث يصير نسخة مكررة منه . وهذا التطويع ينتهي عادة بالاستبداد والغزو الحربي ومحاولة الاحتلال . وأحياناً يحدث هذا ، ويفقد أحد الزوجين حريته الإنسانية . وحين يفقد الإنسان حريته لا يصلح للحب ، ولا للزواج .. لأن الحب والزواج علاقتان انسانيتان ، ومن الصعب على من فقد إنسانيته أن يصلح طرفاً في علاقة إنسانية .

ومن الأفكار الخاطئة التي تشيع في حياتنا أن الزواج يؤدي إلى تغيير الطرف الثاني ، بحيث يصبح على صورتنا وتذوب شخصيته .

وهذا أيضاً أمر مستحيل ، لأننا لو أفقدنا الطرف الثاني شخصيته ، فكيف نعيش مع إنسان بلا شخصية .. أو كيف نعيش في بيت فيه اثنان هما الزوج .. أو اثنتان هما الزوجة ؟

ولقد قال انطوان دي سانت اكسوبري : ليس الحب أن ينظر الثان لبعضهما ، ولكن الحب أن ينظر الإثنان في اتجاه واحد .. ولا يعني هذا أن اتفاق الآراء يعني محو الشخصية أو احتلال العقل أو القهر النفسي .

هذه بعض أخطاء الزواج التي تؤدي إلى فشله .. وهناك أخطاء أخرى لعل أهمها هذه الصورة الشائعة عن الزواج ..

وهي صورة تستحق حديثاً قائماً بذاته .

الخطوة الثالثة في الحب !

قرر كريستوفر كولومبس أن ينزل إلى البر ..

بعد أحلام اليقظة الرائعة التي عاشها فوق سفينته ، قرر أن ينزل إلى البر ، وهكذا استقل قاربه الصغير وراح يجدف متجهاً صوب الشاطئ .

أي توتر داخلي .. وأية سعادة ترعش القلب .. وأي أخيلة تعبر الذهن ، أخيراً جاءت لحظة تحقيق الحلم .

ها هو الشاطئ ..

ها هو يضع قدميه عليه ويسير ..

أسدلت الستائر على الحلم وبدأ التعامل مع الواقع .. وليس الواقع بالضرورة هو تفسير الحلم ...

وهذا شأن الحب إذا مر بالخطوة الثالثة ..

إن الخطوة الثالثة في الحب هي الزواج .. والزواج واقع مادي بينما الحب حالة عقلية . ونقصد بالحالة العقلية هنا كون الحب مسألة اعتبارية بحتة ، فنحن لا نحب أشخاصاً لحقيقتهم وجود كما يقول مارسيل بروست ، وإنما نحب فقط أولئك الذين صنعناهم في قلوبنا أو أذهاننا . وأعظم جمال للحبيبة يوجد عادة في عين من يحبها .

وهذا هو الفرق العظيم بين الحب والزواج .

إن الحب حالة عقلية ، بينما الزواج موقف اجتماعي ..

والحب حلم جميل ، والزواج يقظة تواجه واقعاً ينبغي التعامل معه . ولهذا السبب قال الشاعر الساخر لورد بيرون إن الموت من أجل المرأة التي يحبها الرجل أسهل من الحياة معها .

إن الحياة اليومية تستطيع أن تدمر الحب بمنتهى البساطة .. ويحتاج الحب لكي يعيش هنا إلى مجهود إنساني ليس يسيراً ..

وهذا هو السر في فشل كثير من الزيجات التي تنشأ على أساس الحب .. إن طبيعة الحب تختلف عن طبيعة الزواج ، وليس هذا معناه أن الزواج يقتل الحب ..

الزواج في حد ذاته لا يقتل الحب ، لأن غاية ما يريده المحبان عادة هو اللقاء أكبر وقت ممكن ، وهذا أمر يوفره الزواج بشكل آمن ودائم وأبدي ومضمون .

إذا كان الزواج يلبي رغبة الحب ، فلماذا يقتله أحياناً ؟

هذا السؤال من الأسئلة الهامة التي لا نناقشها كثيراً ، فلنحاول البحث له عن إجابة .

لنحاول أن نعرف لماذا قال بيرون « ان الموت من أجل المرأة التي يحبها الرجل أسهل من الحياة معها » .

استطاع اللورد بيرون أن يعبر بهذه الكلمة ـ لا عن المرأة ـ وإنما عن الرجل ، ولم يكن تعبيره عن الرجل العادي ، وإنما عن الرجل الفنان ..

إن الحب عادة لا يحتاج إلا إلى المشاعر .. أما الزواج فيحتاج لتنظيم المشاعر وتوظيفها في خدمة الأسرة .

والفنان يصعب عليه أن ينظم مشاعره ويوظفها في هدف آخر غير خدمة فنه .. ومن هنا ، يجيء فشل معظم زيجات الفنانين .

إن الطبيعة الفنية القلقة التي لا تستقر على حال ، والرغبة في الاكتشاف المستمر والبحث الدائم .. هذه الطبيعة تصلح للحب أكثر مما تصلح للزواج .. وبسبب أنانية الفنان وحبه لفنه (سواء كان هذا الفن شعراً ، أو موسيقى أو أدباً) فانه يستغل تجاربه الحياتية في خدمة فنه .. ومن ثم يبقى الزواج بالنسبة إليه تجربة ، ويبقى الحب بالنسبة إليه تجربة .. ويهمه هنا شكل التجربة أكثر مما يهمه نجاحها أو استمرارها ، بل إنه لا يلبث أن يسأم بعد قليل من الاكتشاف ، وتعاوده الرغبة في تجربة جديدة ..

والسأم ليس وقفاً على الفنانين الظاهرين .. في الدنيا آلاف الناس من أصحاب الطبيعة الفنية الذين يجهلون طبيعتهم .

أي أن السأم .. هو العدو الأول للحب ..

وهو عدو يستطيع أن يعطي بحرية في ظل الزواج .. وترك هذا العدو حراً يعني الموافقة على تدمير الزواج .

وأخطر ما في الزواج أن الرجل يتصور عادة أن الزواج في حد ذاته تأكيد نهائي للحب .. وبالتالي ، فلا حاجة به لبذل المجهود الذي كان يبذله كمحب في التعبير عن نفسه .

ومن هنا يثقل لسان الحب ويكف عن العطاء ، ويحتضن الاعتياد بذور الملل الوليدة ، وتسقيها مشاكل الحياة اليومية .. حتى إذا مرت سنوات أو شهور .. فوجئنا بأننا أمام قصة زواج عادية تخلو من الحب .. فإذا انسحب الحب من الزواج لم يعد باقياً فيه سوى المشاكل والمسؤولية .

ويلوح في الأفق شبح الطلاق ..
وأحياناً كثيرة لا يخطو الحب سوى خطواته الثلاث ثم ينتهي ..
ويبرز هنا سؤال : كيف يمكن إنقاذ الحب من هذه النهاية .
هذا مانحاول الإجابة عنه في مقال آخر .

الخطوة الثانية في الحب

حين يستيقظ داخلنا الأمير النائم .

حين نعرف المشاعر الأولى في الحب ، يتغير مذاق الحياة ، ويتغير شكل الأرض والبحار ، ويكتسب الناس هالة مدهشة من الضياء ، ولا نرى من محبوبنا إلا الصورة الكاملة التي تبلورت له في النفس .

وقد يكون محبوبنا بليداً فنتصور أنه حكيم .

وقد يكون أحمق فنخلع عنه صفة الشجاعة ..

وقد تكون ملاحظاته تافهة ، لكننا لا نلاحظ .

وقد يكون مفتقراً إلى حسن التقدير أو الذوق ، ولكننا لا نعي ذلك .

إن الموسيقى الداخلية التي تنبع من أرواحنا ، وهذه الغبطة التي تملأ قلبنا لا تتأثر بحقيقته هو ..

لماذا ؟

لأن مصدرها هي ذاتنا العاشقة ..

ليس ذاتنا فحسب ، إنما ذاتنا ــ الحلم ، ذاتنا ــ المثال .

وتجيء الخطوة الثانية في الحب ..

تجيء الأحلام بغير نوم ، ونحس أن الحياة شيء مدهش يستحق عناء الوجود ..

وهكذا نعيش الليلة الأولى قبل اكتشاف المحب ، في حلم الاكتشاف ، وجوهر الحب انه اكتشاف عالم آخر هو عالم المحبوب ، وأي إنسان هو قارة بأكملها ، فيها ما فيها من ذهب وبحيرات وحقول وأفكار ، وأجمل ما في الحب (في تصوري) هو اللحظات الأولى فيه ، وهي لحظات قد تستغرق أياماً أو أسابيع أو شهوراً .

وهذه اللحظات - رغم امتدادها الزمني - تظل لحظات ..

وفي ظني أنها تشبه احساس كريستوفر كولمبس في الليلة الأولى التي اكتشف فيها أميركا ..

وهي ليلة بات فيها في سفينته ، وظل طوال الليل يذرع سطح السفينة ويلقي نظراته على الأرض القريبة التي سينزل إليها غدا .. أحلام هذه الليلة هي أحلام الحب ..

ها هي الأرض .. ولكنها لم تزل بعيدة ..

ها هو الشاطئ .. ولكننا لم نلمسه بعد ..

المسافة بين السفينة والشاطئ تمتلئ بأمواج البحر ، وعلى سطح هذه الأمواج تصطخب الأحلام الأشد بياضاً من الزبد ..

وليس هناك أي تفكير في أي مشاكل من أي لون ، لأننا لم نهبط من سماء السفينة بعد إلى أرض الشاطئ الصخري ..

وهكذا يحلم المحب بآلاف الأشياء ، دون أن يعبر ذهنه خاطر واحد لمشكلة واحدة .. وفي هذه اللحظات يكون كل همنا أن نعرف ..

- هل تميل إلي ؟

- هل تنفر مني ؟

- لماذا ابتسمت ابتسامة ساخرة حين كنت أتحدث ، كم هي

رقيقة رغم ابتسامتها الساخرة ؟
ـ لماذا حدقت في وجهي وأنا أصافحها ؟
ـ لماذا قالت هذه الجملة بهذا الأسلوب بالذات ؟ ولماذا كانت نبرات صوتها تظهر التأثر حين قالت جملتها ؟
ـ ولماذا بدا وجهها رائع الجمال حين ثنت رقبتها والتفتت جهة اليمين ؟ ولماذا تبدو جميلة وهي تتحدث ، وتبدو أجمل وهي صامتة ؟ ترى كيف يبدو وجهها خلال نومها ؟

إن آلاف الأسئلة تعبر ذهن المحب ..

وكل سؤال منها يشبه موجة تنبسط على الشاطئ ثم تعود بغير جواب ..

وليس الجواب هو ما نبحث عنه حقيقة ..

إنما نستسلم لسحر السؤال وسحر الغموض النابع من انتفاء الرد . وفي هذه المرحلة ، لا نظهر من أنفسنا عادة إلا أجمل ما فيها ، ولا نتكلم إلا بعد أن نغسل كلماتنا في ندى الورود ..

وتبدو أفكارنا وقد استحمت بالعطر وجففت نفسها في نور القمر ..

وفي هذه المرحلة ..

يتحول أشد القلوب استعصاء على الشعر إلى قلب شاعر يخفق مع أبعد نجم في السماء .. وكما أن لحظات الهناء المصفى لا تستمر طويلاً ، فكذلك لا تستمر هذه المرحلة الثانية في الحب ..

انتهت أحلام المستكشف وتقرر أن ينزل إلى البر ..

وتجيء الخطوة الثالثة في الحب .

الخطوة الأولى في الحب

على المستوى البشري ، لا أحد يعرف كيف يبدأ الحب ، ولا أحد يعرف كيف ينتهي ..

اختلفت آراء الأدباء والفلاسفة والفنانين في بداية الحب .. كما اختلفت أيضا في نهايته .

وليس هناك حد لعدد الأحداث التي يمكن أن تقع وتنجح في توليد الشرارة الأولى التي تؤدي إلى الحب ..

ويبدأ الحب عادة بصدمة ، وإذا كان الإنسان مصنوعاً من طين الأرض ، وإذا كان طين الأرض يعرف الزلازل ، فإن الإنسان يعرف شيئاً يشبه الزلزال في الحب ..

إن أشياء داخله تغوص في باطن النفس ، وترتفع أشياء أخرى ، ويتم هذا كله في ثوان . ولكن الإنسان يكتشف بعد مرور هذه الثواني أن ما بداخله لم يعد كما كان .. لقد تغير شيء ما في روحه .

ولدت جزيرة في محيط الذات .. وعلى هذه الجزيرة صورة ما .. صورة غامضة لم تستكمل ملامحها بعد ..

ولكن هذه الصورة تصبح هي مركز الاهتمام الجديد ، وتصبح هي الهدف الذي تسعى إليه الأحلام المعطرة الموشاة بحزننا النبيل ..

وفي كل قصة حب قدر من الحزن تبدأ به ..

إن آلاف الأحزان الغامضة تتكسر على شواطئ الروح .. ربما لا نلتقي بعد الآن .. ربما ترحل هي أو أرحل أنا .. ربما أموت وربما لا أعجبها .. وأي فرق بين الحالتين ؟ لا حد لعدد المخاوف التي تنبع من صدمة الحب الأولى .. ولكن هذه المخاوف تستحم عادة في أمطار الأمل .

ووسط مرعبات الحياة وأخطارها تبقى الجزيرة النائية هي الملاذ الآمن الأخير .. ثم يقع تطور آخر في نفس المحب ..

تلعب المسافة دورها في قصة الحب ، ويلعب الزمن دوره إذا أضيف البعد إلى المسافة .

ولننظر في قصص الحب التي انحدرت إلينا من تاريخ البشرية .. إن معظمها - إن لم يكن كلها - تعرف بعد المسافات وتأثيرها في نفوس المحبين .. إن ليلى العامرية تناءت الديار ، رحلت قافلتها ذات يوم ، وحين وصل قيس لم ير من أثر الخيام إلا حفر صغيرة في الأرض دقت فيها الأوتاد..

وهنا يبدأ المحب في الحلم ، في تصور المحبوبة ، في تكملة ملامحها ورسم شخصيتها كما يحب هو ..

يقول الفيلسوف ألن «إن أعظم قوة للمرأة ، تكمن في غيابها ، لأن حضور المحبوبة لا يلبث أن يكشف لنا عن مواطن الضعف فيها . أما في غيابها ، فانها تصبح واحدة من عرائس الخيال ، وهكذا نخلع عليها صفات الكمال» .

ويستمر المحب في بلورة صورة المحبوب ، حتى إذا انتهى من

ذلك ، كانت هناك صورة جديدة للمحبوب ، صورة تمثل رؤيتنا الخاصة له ..

يقول مارسيل بروست «إن الحب مسألة اعتبارية ، ونحن لا نحب أشخاصاً لحقيقتهم ووجودهم ، بل نحب فقط ، أولئك الذين أوجدنا صورتهم .. أي أن الجمال يكمن في عين الناظر إليه .. »

هذه العبارة صحيحة ، وهي تذكرنا بما يصنعه الفنان التشكيلي حين يرى مدينة جديدة فيقع في هواها ويقرر رسمها ..

إنه لا يرسم بعينيه .. ولو فعل دون زيادة أو نقصان ، فأي شيء جديد استحدثه على دور الكاميرا الفوتوغرافية .

إنما يرسم الفنان المدينة من خلال رؤياه الخاصة لها .. يركز على قباب المساجد أو يركز على المآذن التي ترتفع كالسيوف في السماء .. أو يركز على وجه طفلة صغيرة تطارد فراشة ملونة ..

وتصبح هذه اللقطة الجديدة أو هذه الرؤيا الجديدة هي رؤيا الفنان للمدينة .

نفس الأمر يقع في الحب ..

نرى المحبوب من خلال جمالنا الداخلي وآفاق الكمال التي نحلم بها نحن ..

وهكذا يساعد الحب الأمير النائم داخلنا على الميلاد ..

وهذه هي الخطوة الأولى في الحب .

حواء ليست مسؤولة عن هبوط آدم !

أنواع الظلم الواقعة على حواء كثيرة ..

من بينها ظلم قديم قديم ..

ظلم يرجع تاريخه لنشأة الأرض وهبوط الإنسان عليها ..

لا أحد يدري من أين جاءت فكرة أن حواء هي المسؤولة عن إخراج آدم من الجنة .

قيل في الكتب الدينية القديمة إن حواء أغرت آدم وراحت تزين له أن يأكل من الشجرة المحرمة حتى فعل ..

وهكذا تتحمل الأم الأولى للبشرية مسؤولية هبوط الجنس البشري إلى الأرض .

هذه الفكرة تسللت إلى المسلمين .. وهي فكرة عارية تماماً من الصحة . لا أنكر أنني كنت متأثراً بالفكرة .. ولا أنكر أنني لم أتوقف كثيراً لمناقشتها حتى جاء يوم ..

كنت أجلس مع صاحب الفضيلة المرحوم الدكتور محمد فتح الله ابن بدران ، وكنا نتحدث في هبوط آدم من الجنة إلى الأرض ومسؤوليته في ذلك .

قال د. فتح الله بن بدران : إن آدم يتحمل وحده مسؤولية هبوطه إلى الأرض .

قلت له : كيف ؟ إن هناك فكرة قديمة تقوم بتحميل حواء هذه المسؤولية .

قال الرجل العالم : نحن لا نلتفت للأفكار والأساطير .. فماذا يقول النص القرآني في هذا الصدد ؟

قلت له : يقول تعالى «وعصى آدم ربه فغوى» .

قال لي : أين ذكر حواء ؟

قلت له · لم يذكر القرآن حواء ..

سألني : أتظن أن القرآن غفل عن ذكرها ؟

قلت : استغفر الله العظيم .

قال : أرأيت .. إن حواء ليست مسؤولة عن إغواء آدم ، إن آدم هو المسؤول عما حدث ، ولهذا ذكره النص القرآني وحده صراحة ، ولم يرد أي ذكر لحواء .. ولو كان لها دور لكان لها ذكر .

قلت له : صحيح انها لم تذكر بمناسبة الفعل .. ولكنها ذكرت بمناسبة التوبة . يقول تعالى عن توبة آدم وحواء : « قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين» .

قال الشيخ بدران : لقد ظلمت حواء نفسها باتباع آدم . وآدم هو الذي غوى ، وهو يتحمل مسؤولية الفعل ابتداء . ولهذا يذكر في المعصية لأنه المنشئ لها ، وتذكر حواء في التوبة لأنها ظلمت نفسها باتباع آدم ولكنها تابت معه حين تاب .

قلت له : إذن تسقط الأسطورة التي تدعي ان حواء هي المسؤولة عن هبوط آدم إلى الأرض .

قال : نعم .. تسقط الأسطورة .

ثم صمت قليلاً وقال : أتظن أن هبوط آدم وحواء إلى الأرض كان هبوط إهانة أو عقوبة ؟

قلت : لا أعرف .

قال : كان هبوط كرامة لا هبوط إهانة .. قال تعالى : (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة) . وأن ما حدث كان إشارة إلى أن العصيان والتوبة يوجبان رحمة الخالق (آدم وحواء) .. وأن المعصية والإصرار يوجبان غضب الخالق (ابليس) .

قلت له : حواء مظلومة إذن ..

قال : نعم .

قلت له : لا ينبغي أن نشيع هذا التصحيح .. لنترك الأمور على حالها ولنترك حواء متهمة .

قال : كانت حواء ضحية .. لا مسؤولة ولا متهمة ..

رقم الإيداع ٣٠٥٤/٨٨
الترقيم الدولي ٠ ٧ ـ ٢١٥ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف ٧٧٤٨١٤ ـ ٧٧٤٥٧٨ ـ برقيا : شروق ـ تلكس 4HROK UN 93091
بيروت : ص ب ٦٤ ٨ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧١٥ ـ ٨١٧٢١٣ ـ برقيا داشروق ـ تلكس SHOROK 20175 LE